عشيّات الكوخ

«سو Sioux» هو الإسم الذي أطلقه «التاريخ المنتصر» على عنقود كبير من القبائل والشعوب الناطقة بلغة «اوجيبوا Ojibwa» في سهول الشمال الأميركي بين نهر الميسيسبي والجرود Rocky Mountains. اسم لا يتداوله أهله إلا مكرهين، فهم منذ ولادة ذاكرتهم يُعرفون باسم لاكوتا (تحالف الأصدقاء)، ويلفظونه بحسب لهجاتهم الثلاث الكبرى بتصحيفات بسيطة مختلفة. وما تزال ولايتا داكوتا الشمالية والجنوبية تحملان الإسم التاريخي لهذه الشعوب، وتشهدان على قسوة الإبادة الثقافية التي يتعرض لها كنعانيو العالم الجديد.

مع بداية أدبيات التشنيع والتشويه الجماعي، اطلق الفرنسيون في عام ١٧١٢ على هذه الشعوب اسم «الأفاعي المخاتلة». وللمزيد من الإيلام فقد استعاروا الكلمة nadouessioux من لغة الضحايا أنفسهم ثم اختصروها إلى «سو» Sioux لتتناسب مع أنظمتهم اللغوية وترتاح لها حنجرة «بوالو» النبيذية. ثلاثة قرون و«ساديّة» التاريخ المنتصر تفرض على هذا الضحية القدرية أن يعرّف بنفسه بأنه «أفعى مخاتلة»، وتُكرهه رسميا على أن يلقنّها لأبنائه وأحفاده إلى أن صارت أبرز ملامح هويته التاريخية الملفقة.

كان الفرنسيون يريدون بهذا الإسم الجديد أن يميزوا هذه الكائنات عن مئات من الشعوب والقبائل والثقافات التي احتطبها الغزاة البيض الأوائل من أسمائها ولغاتها وذكرياتها وبيوتها وحقولها وأنهارها وألقوا بها جميعا في المصهر الهندي.

بدءا من الإسم وانتهاء بالروح، يواجه الهنود اليوم حرب اقتلاع وإخضاع وتعرية ثقافية، هي الوجه الآخر لحرب الإقتلاع والإخضاع والتعرية الجسدية، وهي ما يسميه «رسل مينس»

أحد أبرز وجوه الحركة الهندية Indian Movement المعاصرة بالمذبحة الكبرى والأخيرة للوجود الهندي، «فإذا ما محيت ثقافة شعب أو زورت فإن الوجود الحقيقي لهذا الشعب سيمحى» ويشمله تعبير «الوجود المزيف».

محو ثقافة الهنود وتاريخهم وطقوسهم الروحية هو السلاح الذي تستخدمه الولايات المتحدة اليوم لانتزاع البقية الباقية من أراضيهم وثرواتهم، كما يفصّل ذلك دونالد فيكسكو في كتابه الرائع الذي يلجأ فيه إلى علم النفس الإجتماعي والتحليلي لدراسة ظاهرة «غزو بلاد الهنود في القرن العشرين The Invasion of Indian Country in the Twentieth Century...».

إن هذه العلاقة المميزة بين الهندي وطبيعته مثلا ما تزال حائلا دون السيطرة «السلمية» على ما تبقى مما يملكه «أولاد الأفاعي» من أراضيهم التي تزيد مساحتها على مساحة بريطانيا (٣٪ من مساحة الولايات)، والتي ما تزال تختزن احتياطيا كبيرا من اليورانيوم والذهب والنفط وكل ما يسيل لعاب «ثروة الأمم» ونيرانها.

في حرب المحو والتزوير الثقافي والروحي تحاول وسائل التعذيب البيضاء خلق تصورات طبيعية جديدة في الوعي الهندي للالتفاف على علاقته المميزة بالطبيعة وعلى تلك الوحدة الوجودية التي حالت دون قيام نظام الملكية الفردية وعقلية الوراثة ومبدأ التمييز وعلاقات العنف، وقضت بذلك على كثير من مغريات بيع الطبيعة وشرائها. فالطبيعة التي يعيشها الهنود لم يرثوها عن آبائهم وأجدادهم بل يعتقدون أنهم استعاروها من أبنائهم وأحفادهم.

علاقة مميزة بالطبيعة كعلاقة الموجة بالماء، فهي لا تميل إلى الحلول السهلة، ولا تستعين بمصباح سحري أو عفريت في قمقم، ولا تعتمد خوارق الديانات اليهودية. إنك لا تجدها عند عيسوب Aesop أو بيدبا الفيلسوف أو هانس أندرسون أو الأخوين غريمز.

هذه الوحدة الوجودية بين الأرض والسماء وأنواع الحياة المختلفة تتجسد في أسمائهم المستمدة كلها من الطبيعة وكائناتها، ومن مخاطبتهم حيوانات الأرض مخاطبة العقلاء، ومن كراهيتهم للعنف؛ عنف الجشع والتملك والغزو والقتل المجاني. إنها تضرب تصوراتها عمقا في حياة الهنود منذ عهد الصيد البدائي الذي تتحدث عنه هذه الحكايات عندما كانت حياة الإنسان وليمة حافلة أو مجاعة قاتلة.

منذ الحكاية الأولى تتبلور هذه التصورات الأساسية للروح الهندية، تصورات اللاعنف، تصورات الحب المتبادل بين الطبيعة وكائناتها، وتصورات الأنسنة الكونية الشاملة حين يقول «سموكي داي» راوي هذه الحكايات: «إن «الجد الأكبر»، جد كل شيء، هو الذي خلقنا كلنا وجعلنا إخوة متحابين. وستجدون أن كل الكائنات في هذه الحكايات تتكلّم لغة مشتركة. لهذا نحترم الحيوانات، فهي أكثر صمتا من الإنسان، ولهذا أيضا نبجل الأشجار والصخور حيث يعيش «السر الأعظم » في طمأنينة وسلام سرمدي».

المترجم

العشية الأولى

قمر الشتاء البارد يطل الآن فوق ذرى الأشجار. يمد أصابعه البيضاء هنا وهناك بين عناقيد منازل «سو» .

في وجه منازلهم الشتوية الراقدة فوق ضفاف البحيرة جزيرة دغلية يتيمة مفروشة كجلد الجاموس بين غطاء الثلج الأبيض وسماء كئيبة بلون الرماد. وعلى الطرف الأقصى من القرية تنتصب خيمة الحكواتي العجوز مرشد الغابة «سموكي داي».

كل الدروب إلى هذا الكوخ البيضاوي ممهدة غائرة؛ دروب ضيقة المسالك كأنها في الثلج الصقيعي دروب الغنم.

كانت النار اللاهبة سخية توقد بجذوع الأشجار فتبث الدفء في الكوخ وتنشر الضوء. وكان العجوز يحشو غليونه الوردي الطويل بصمت وقور من أجل تدخينة الصفاء، فيما كانت ضوضاء الأطفال وأصوات خطاهم تُسمع بوضوح في سكون الليل الَشتوي.

يرتفع حجاب المدخل، وتتسلل تاناغيلا (العصفور الشادي) ببسمتها الخجلى وعيونها السود المتوقدة. ثم تهمس تاناغيلا بنت السنوات التسع: «يا جدتي، لقد جئنا لسماع الحكاية. وها قد حملتُ لك يا جدتي لسان جاموس مقدد في الشمس».

يدخل الصغار بعدها ويتربعون حول النار واحدا واحدا إلى أن تكتمل الحلقة.

عندها يضع العجوز غليونه جانبا، ويربط حلقه بقحّة واحدة أو قحّتين قبل أن يبدأ الحكاية بصوت رزين:

«هذه الحكايات تعلمنا طريقة الحياة، يا أحفادي. إن »الجد الأكبر»، جد كل شيء، هو الذي خلقنا كلنا وجعلنا جميعا إخوة متحابين.

«وستجدون فيها أن كل الكائنات تتكلّم لغة مشتركة.

«لهذا نحترم الحيوانات، فهي أكثر صمتا من الإنسان.

«ولهذا أيضا نبجل الأشجار والصخور حيث يعيش »السر الأعظم» في طمأنينة وسلام سرمدي.

« أرجو أن لا يسأل أحد منكم سؤالا حتى تنتهي الحكاية».

الجاموس وفأر الحقل

ذات زمان، بينما كان الفأر البري يجمع الحبوب للشتاء، اقترب منه جاره الجاموس وراح يرعى الأعشاب.

لم يكن ذلك ليروق الفأرَ الصغير لأنه يعلم أن الجاموس سيقتلع الأعشاب الطويلة

بلسانه المنجَليّ، ولن يُبقي له مكانا يختبىء فيه.

هكذا قرَر الفأر أن ينازل الجاموس في معركة كما يفعل بنو البشر!

«هيا يا صديقي الجاموس، إني أتحداك وأدعوك للنزال». قالها الفأر بصوته الصائي.

لم يكترث الجاموس بكلام الفأر وظن الأمر كله مزاحا.

وبغضب شديد ردد الفأر تحديه فيما ظل الجاموس يلتهم الأعشاب بهدوء.

عندها ضحك الفأر الصغير بسعادة المنتصر في تحديه فالتفت إليه الجاموس وأجاب باستهتار:

«خير لك أن تخرس أيها الصغير، أو آتيك فأدوس عليك ولن يبقى منك أثر».

قال الفأر: «لا. لن تستطيع ذلك».

رد الجاموس بشيء من الغضب: «قلت لك أن تخرس. إذا قلتَ لي كلمة واحدة جديدة فإنني سآتيك وأنهي عليك».

قال الفأر باستفزاز:«هيا . هيا. إني أتحداك».

عندها هجم الجاموس عليه. كان يخبط العشب بجنون ويشق الأرض بحوافره الأمامية. ولما توقف نظر حواليه فلم يعثر للفأر على أثر.

«لقد أنذرتك بأنني سأطأ عليك فلا يبقى منك شيء».

في تلك اللحظة أحس الجاموس بتخريش شديد داخل أذنه اليمنى، فنفض رأسه بأقصى ما يستطيع، وهز أذنه إلى الأمام وإلى الوراء.

كان القضم داخل أذن الجاموس يشتد عمقا ويزداد إيلاما إلى أن طار صوابه فراح يدك العشب بحوافره ويفلح الأرض بقرنيه، ثم بدأ يخور خوارا جنونيا ويركض بأقصى سرعته قدما ثم في حركة دائرية إلى أن توقف أخيرا وراح يرتجف.

هنا قفز الفأر من أذنه وقال: « هل تعترف الآن بأنني أنا السيد»؟

وشخر الجاموس وهو يقول: «لا»، ثم هجم عليه وكأنه يريد أن يدوسه تحت حافره. لكن صديقنا الفأر اختفى.

وفجأة أحس به الجاموس داخل أذنه الثانية فجن من الألم، وانطلق من جديد يذرع البرية ويجمح في الهواء حتى سقط على الأرض قتيلا.

وقفز الفأر من أذن الجاموس ليقف منتشيا فوق جسده الميت.

«يا للفرح. لقد قتلتُ أعظم البهائم. وهذا ما سيثبت للقاصي والداني أنني أنا السيد».

ومن أعلى الجثة راح ينادي بأعلى صوته: «أحضرو السكين لهذه الذبيحة».

وكان في أقصى المروج ثعلب أحمر جائع يصطاد الفئران ليفطر بها. وفجأة رأى واحداً فانقضّ عليه بقوائمه الأربع، لكن الفأر الصغير أفلت منه وتركه في خيبة قاتلة.

في تلك اللحظة سمع نداء يتردد من أقصى المروج: «أحضروا السكين. أحضروا السكين».

ولم يكد الثعلب الأحمر يسمع النداء الثاني حتى انطلق إلى الصوت، ثم توقف فوق المرتفع الأول وراح ينصت بكل جوارحه. ولما لم يسمع شيئا همّ بالرجوع. غير أن النداء تردد من جديد بصوت ناعم، لكنه صوت واضح مسموع: «أحضروا السكين!».

وانطلق الثعلب الأحمر بأقصى سرعته إلى أن شاهد جثة الجاموس الضخم ملقاة فوق الأرض والفأر الصغير يعلوها.

قال الفأر بلهجة آمرة: «أريدك أن تذبح لي هذا الجاموس، وسوف أعطيك قطعة من لحمه».

قال الثعلب بأدب: «شكرا يا صديقي. يسعدني أن أفعل ما تريد».

كان الثعلب يذبح الجاموس بينما جلس الفأر على تلة قريبة يشرف على الذبح آمرًا ناهيا:

«هيّا! اقطع اللحم قطعا صغيرة».

حين انتهى الثعلب من عمله أعطاه الفأر قطعة صغيرة من كبد الجاموس، فابتلعها سريعا وراح يتلمظ.

قال الثعلب بتواضع: «أرجوك، هل لي بقطعة ثانية»؟

رد الفأر بكبرياء: «لماذا؟ لقد أعطيتك قطعة كبيرة. يالك من جشع»! ثم أضاف متهكما:«لك أن تأكل ما شئت من جلطات الدم!».

كان الثعلب المسكين جائعا فتناول جلطات الدم، بل إنه لعق ما علق منها على العشب، ثم قال: «أرجوك هل لي أن آخذ قطعة من اللحم معي إلى البيت»، وراح يستجديه «عندي ستة صغار جائعين وليس عندهم ما يأكلونه»!

قال الفأر: « لك أن تأخذ القوائم الأربع. إنها تكفيكم».

قال الثعلب: « شكرا. شكرا. وعندي، يا أيها الفأر، زوجة جائعة، وقد كان حظنا في الصيد عاثرا، ونكاد نموت من الجوع. ألا تتكرم علي بشيء آخر»؟

أجاب الفأر: «لماذا؟ لقد أعطيتك أكثر مما تستحق لقاء عملك التافه. وعلى كل حال فإن لك أن تأخذ الرأس أيضا»!.

وهنا قفز الثعلب فوق الفأر الذي لم يكد يبدأ بالأنين حتى اختفى من الوجود.

إذا كنت متكبراً وأنانياً فإنك في النهاية ستخسر كل شيء.

العشيّة الثانية

ومن جديد حانت ساعة الحكاية. كانت العجوز الطيبة زوجة الحكواتي في انتظار ضيوفها تشيع في كوخها المتواضع ما أمكنها من دفء وبهجة. إنها فخور بما لزوجها معلم القرية من منزلة نبيلة في القرية. وهي لهذا تستقبل الأطفال بأعذب الترحيب:

«هَنّ، هَنّ، استرح، استرح. حسنا.. حسنا جدا، يا حفيدي»

في هذه الليلة، جاءت تاناغيلا تجر بيدها أخاها الصغير الذي كان يتعثر بجوربه الجلدي المهدّب وخفه المطرز بالخرز الملون الجميل. على طرفي وجهه الغض تتدلى ضفيرتان سوداوان معقودتان في نهايتيهما بشريط من جلد ثعلب البحر.

ولأنها تعرف أن أخاها لا يحب القعود طويلا ولا يطيق السكوت طويلا فإنها أقعدته بجانبها. كان الصمت مطبقا عندما صاح الصغير بأعلى صوته: « ما أبرد هذه الليلة! لماذا لا نسمع كل هذه الحكايات في ليالي الصيف الدافئة يا أختي الكبرى»؟.

رمقته تاناغيلا بنظرات عاتبة مذعورة، ثم همست خائفة: «اسكت يا أخي الصغير. ألم تسمع أبدا بأن الحكايات العتيقة إذا ما رويت في الصيف فإن الأفاعي تزحف إلى فراشنا»؟

قال المعلم العجوز مؤكدا: «هذا صحيح يا حفيدتي. لكننا نستطيع أن نروي حكايات الصيف لنثلج قلب أخيك الصغير».

الضفدع وطائر الكركي

في قلب الغابة بحيرة صغيرة باردة خضراء.

ضفافها محفوفة بدغل كثيف من عشب الديس الذي يتماوج برخاوة مع كل ريح.

أما خلجانها الضحلة فتكاد تكتسي بأوراق سوسن الماء الكبيرة.

هناك، بين القصب ونبات السّمار والمياه الراكدة، تسكن قبيلة كبيرة من الضفادع.

في كل ليلة ربيعية دافئة يعلو نقيق الضفادع في تناغم بهيج.

بعضها خفيض عميق تصدح به الضفادع العجوز الحكيمة؛ تلك التي تعلمت الحكمة من حياتها الطويلة.

وبعضها صاخب مرتفع تنق به صغار الضفادع التي تكره ذكرى أيام لم تكن لها فيها سيقان أو ذيول.

«كررومپ! كررومپ! أنا زعيم هذه المياه»، ينقّ ضفدع ضخم مختبىء في ظل إحدى أوراق سوسن الماء.

«كررومپ! كررومپ! أنا زعيم هذه المياه» يجيبه صوت أجش من الضفة المقابلة.

«كررومپ! كررومپ! أنا زعيم هذه المياه» يصيح ضفدع عجوز ثالث من ضفة أبعد.

كان هناك كركي أبيض طويل الساقين مختبىء بين الأعشاب المتشابكة على حافة الماء. وكان شديد الجوع في تلك الليلة.

ما أن سمع الكركي الصوت العميق لذلك الضفدع الضخم الأول حتى انقض عليه، وألقى بمنقاره الحاد الطويل تحت ورقة سوسن الماء.

أما الضفدع العجوز فنقّ بخوف، وقفز قفزة يائسة عنيفة. وأما صغار الضفادع الخائفة فغارت إلى الأعماق: سپلاش، سپلاش.

لم يكد الكركي يلتقم الضفدع حتى أحس بشيء بارد رفيع يلتف حول ساقه الطويلة فتراجع لحظة تمكن فيها الضفدع من النجاة. لكن الكركي لم يخسر عشاءه تلك الليلة فقد وجد على ساقه ثعبانا مائيا أسود كان له وجبة شهية.

ها هو الكركي ينتصب على ساق واحدة في الماء، والضفدع الثاني في الضفة المقابلة ينقّ عاليا: «كررومپ! كررومپ! أنا زعيم هذه المياه».

وبدأ الجوع يدب في الكركي، فدار حول البحيرة الصغيرة متلصصا، ثم انقض على الضفدع الثاني الذي كان يتربع في وضح الضوء، ينفخ صدره بعجب وكبرياء معتقدا بأنه فعلا زعيم المياه الأوحد .

وفيما كان رأس الكركي وعنقه الطويل تحت الماء كانت صغار الضفادع الخائفة تغور بعيدا فى أعمق الحفر : سپلاش، سپلاش.

أما الكركي فلم يكد يلتقط الضفدع بإحدى قائمتيه حتى رأى ما جعله يصفق بجناحيه الواسعين ويطير مذعورا إلى أقصى ضفاف البحيرة.

كان وحش المنكِ* بجسده البني الهزيل وعينيه الشيطانيتين يزحف قريبا من الكركي لعله يلتهمه.

وهكذا نجا الضفدع الثاني لكن الفزع الذي أصابه علمه أن لا ينقّ أبدا.

ومر وقت طويل. ونسي الكركي خوفه، ثم أصابه الجوع.

أما المياه فظلت ساكنة زمنا عادت فيه الضفادع إلى غنائها. وأما الصوت النافر الوحيد في ذلك التناغم البهيج فكان نقيق الضفدع العجوز الثالث: «كررومپ! كررومپ! أنا زعيم هذه المياه».

كان الكركي يتربص بالضفدع غير بعيد عنه، وكان عازما على أن يمحو صوته من الوجود. ولهذا لم يكد الضفدع يلفظ «كررومپ» حتى التقطه الكركي بقائمته. كان ينق ويقاوم عبثا قبل أن يزلقه الكركي عميقا في عنقه الطويل.

في تلك اللحظة زحف ثعلب من وراء الكركي فاصطاده. وأفلت الضفدع من منقار الكركي الذي كان يصرخ بين شدقي الثعلب وهو يجره إلى قلب الغابة ليتعشاه.

وهكذا نجا الضفدع الثالث من الموت، لكنه كان مثخنا بالجراح التي تركها في جسده منقار الكركي الحاد.

ليس من الحكمة أن تنقّ بصوت مرتفع.

* المنك mink من الثدييات البرمائية، ومن فصيلة ابن عرس.

العشيّة الثالثة

«لا يا أختي الكبرى، لا يليق بالصياد والبطل الشجاع أن يحتطب لنار البيت. ذلك من عمل المرأة ولا يحق لك أن تطلبيه مني».

«لكنك يا أخي الصغير ما زلت فتى صبيا لاتصطاد ولا تحارب. ولهذا فإن أفضل ما يناسبك الآن أن تساعد أمنا في البيت».

كان الطفلان «واسولا» و«شاتانّا»، وهما يقتربان من كوخ الحكواتي، ما ضيين في نزاعهما الذي نشب بينهما في أول المساء. كان لا بد من قضبان جافة لوقود العشاء.، وكان شاتانّا ابن السبع سنين يرفض مساعدة اخته بحجة أن جمع الحطب ليس من واجب المحارب.

كلا الأخوين شكا أمره لمعلمه واحتكم إليه.

وهمهم العجوز الطيب: «هَن، هَن، هاي. حقا، ما أكثر ما يقال عن وجهي هذا النزاع، لكن، لعلكما ستتراضيان بسهولة أكبر بعد هذه الحكاية.

النسر والسـمّورة

عاليا ومنطلقا كالسهم في لازورد السماء يحلق نسر الحرب المهيب.

وفي جوار غدير الماء الداكن سَمُّورة تقطـّع القضبان. لكن ذلك لم يشغلها عن سماع أزيز الجناحين المنقضّين عليها. هكذا حط النسر متأخرا بعد أن تلاشت السَمّورة في مياه البحيرة المتلألئة.

وجثم النسر متجهما كئيبا فوق ذرى شجرة يابسة.

عيناه مسمرتان على ملاءة الماء الملساء.

بعد قليل، ارتعش وجه الماء، وانشق عن وجه بُني ناعم يعلو حذراً.

وراحت السَمُّورة توبّخ النسر: «بأي حق تقلق راحة أم أطفال مَسالمين يأكلون بكد جبينهم»

وسرعان ما أجاب النسر:« آغ..إني جائع».

«ولماذا لا تفعل ما نفعل. دع الآخرين وشأنهم وإذهب فاعمل عملا تعيش به».

رد النسر مفندا: «كل هذا مناسب لك أنت. ولكن ليست كل المخلوقات تستطيع تقطيع الشجر بأنيابها، أو تطيق عيشا على لحاء الأشجار والأعشاب البرية في أكواخ من وحل. إنني محارب ولست امرأة عجوزاً».

قالت السمّورة بهدوء:« صَدَقَ من قال: إن هناك من تلده أمه مشاغبا مثيرا للمتاعب. ومع ذلك فإني لا أعرف لماذا لا ترضى بأن تكدح مثلنا من أجل عيشك. إن عملي مفيد لي ولأسرتي، ومفيد للآخرين. إنني بهذا الحاجز الذي أبنيه أعمّق مجرى الماء لصالح كل من يعيش في الماء. أما أنت فإرهاب لكل من يعيش من مخلوقات أضعف منك. وخير لك أن تتخذني مثلا صالحا فتحتذي حذوي».

ولما انتهت من كلامها غاصت السَمُّورة من جديد إلى أعماق البحيرة.

وانتظر النسر صابرا، لكن وقتا طويلا مضى ولم يلمح للسَمَّورة من أثر.

وهكذا فبالرغم من ازدرائه لما تفعله السَمُّورة العجوز من عمل مسالم فإنه هو الذي طوى بطنه على الجوع في ذلك الصباح.

إن العنجهية وحدها لا تملأ المعدة.

العشيّة الرابعة

ليست هناك جلافة أبشع من مقاطعة المعلم، مهما كانت تلك المقاطعة.

كل أطفال سو وغيرهم من أبناء الشعوب الهندية نشأوا على هذا العرف وأُشرِبوه مع الرضاعة. لهذا ، فنادرا ما يشكو «سموكي داي» العجوز من قلة الإنتباه.

حتى الفَتَيان «تيونا» و«واولا»، وهما الآن صيادان شجاعان في الحادية عشرة والثانية عشرة من عمريهمَا، سيشعران بالخجل والعار لو انهما تفوّها بكلمة أو أتيا بحركة تثير عليهما نظرات رفاقهما العاتبة. إن كل تعكير يلحظه المعلم العجوز سيجلب العار عليهم جميعا.

ابتدأ الحكواتي العجوز كلامه بسعادة ووقار: «صحيح أننا سنسمع قصص الحيوانات من جديد، وسنسمع أيضا قصصا من غير عالم الحيوان، لكن علينا أن نتذكر أن كل محارب ممن سأذكرهم يمثل إنسانا، وأن كل ضعف في هذا أو ذاك يجعلنا نتساءل عما فينا جميعا من ضعف.

ففي هذه الحياة يبدو أن البطيء المتأني هو الذي ينتصر في النهاية كما سنرى الآن».

حفلة الحرب

ذات يوم، أرادت السلحفاة أن تمشي على طريق الحرب.

الرفاق الذين أحبوا أن يحاربوا معها هم «الجمر» و«الرماد» و«عشب الديس» و«الجندب»، و«اليعسوب» و«سمكة الكراكي».

ومضى المحاربون السبعة إلى معسكرهم الأول حيث هبت في الصباح ريح عاتية لم تبق شيئا من «الرماد».

وقال الرفاق: «إيهو، إن هذا الرفيق ليس محاربا».

وتابع المحاربون الستة مسيرتهم على طريق الحرب حتى وصلوا إلى النهر.

وفي النهر انطفأ «الجمر». كل ما قاله: «وش ش شش»، ثم تلاشى.

قال الرفاق:«هه. كان واضحا أنه لم يكن محاربا شجاعا».

ولما وصلوا إلى الضفة الثانية نظروا وراءهم فوجدوا عشبة الديس في مكانها. كانت تلوّح للرفاق الذين دمدموا فيما بينهم:« هذه أيضا ليست محاربة حقيقية».

وتابع المحاربون الأربعة مسيرتهم على طريق الحرب إلى أن وصلوا إلى أرض مستنقعية غرز الجندب فيها ولم يستطع حراكا.

هكذا لم يبق على طريق الحرب إلا ثلاثة رفاق.

كان «اليعسوب» يندب رفيقه ويبكي بمرارة، ولما أراد أن ينخر بقوة لينظف منخاره كسر عنقه الهزيل.

قال رفيقا الحرب الباقيان:« نحن الآن بدون رفاقنا الضعفاء في وضع أفضل».

واقتحم المحاربان الباقيان بلاد الأعداء بشجاعة.

وهناك عند ثغر البحيرة صدهما الأعداء وأحاطوا بهما.

وألقت سمكة الكراكي بنفسها في الماء لتنجو بجلدها . أما السلحفاة البطيئة فإنها وقعت في الأسر. ثم ساقها الأعداء إلى القرية حيث عقد الزعماء مجلسهم ليقرروا مصيرها.

قال أحدهم: «سنشعل نارا ونشويها حية»

وهتفت السلحفاة بهتاف الحرب مرحبة:« هاي! هذا موت بطولي أحبه لنفسي! سوف أدوس على النار وأرمي بالجمر على الناس شمالا ويمينا».

قال الثاني: «لا. سوف نغلي ماء ونرميها فيها».

وهتفت السلحفاة ثانية: «هاي! سوف أرقص في القِدر، ولسوف ترتفع سحب من البخار لتعمي عيون الناس».

ونظر أهل المجلس إلى بعضهم بارتياب، ثم قال واحد منهم: « لماذا لا نأخذها إلى

منتصف البحيرة ونغرقها»؟

عندها سحبت السلحفاة رأسها إلى داخل درعها وظلت ساكتة. بعد ذلك سمعوها تقول بحسرة:«هذا هو المصير الذي يخيفني».

وهكذا حملها الأعداء في زورق، ثم جدّفوا إلى وسط البحيرة حيث ألقوا بها.

للوهلة الأولى سقطت السلحفاة في الماء كما تسقط الصخرة!

بعد دقيقة ظهرت على سطح الماء، وهتفت من جديد بهتاف الحرب: «هاييييي! هأنذا الآن في بيتي». ثم غطست وراحت تسبح حيثما يحلو لها.

الصبر وسرعة البديهة خير من السرعة.

العشيّة الخامسة

المختال شخصية شائعة ومعروفة في كل قرية هندية. ولعل كثرة القصص التي تحذرنا من التباهي ومدح الذات خير دليل على أن حكماء القبيلة لم يهملوا هذا المرض الساري بين أهلهم بل اكتشفوه منذ بداياته وحذروا من خطره.

لمعظم الحكايات التي يرويها «سموكي داي» عبر أخلاقية، ولا شك في أن الأطفال لم يرسَلوا إليه للمتعة والترفيه بل ليتعلموا ويستفيدوا من ذخائر الماضي. وهم بالتأكيد سيرددون الحكايات التي سمعوها بين أهليهم، بل إن هؤلاء الصغار يتبارون فيما بينهم على من سيروي الحكاية أفضل من صديقه. الطفل تيونا مثلا يتمتع بذاكرة حادة وبديهة حاضرة، ولطالما كانت روايته للحكاية مقبولة محبوبة، لكن ابنة عمه الصغيرة تاناغيلا لاقت الاستحسان الكبير حين روت حكاية الأمسية الرابعة عن المحاربين السبعة بطريقتها المفعمة بالحياة. وها هي السيدة الصغيرة في هذه الليلة تنتظر، بوجنات ملتهبة وعيون براقة لعلها ستلاقي ما لاقته من نجاح واستحسان وهي تروي قصة:

الباز والبطة

ما أن تعالى الموج وبدأت رياح الشتاء بعويلها حتى أسرع ذكر البط وأنثاه إلى جمع فراخهما على ضفاف بحيرتهم الشمالية البعيدة.

قال الذكر لأنثاه: «يا زوجتي. لقد حان موسم الهجرة بفراخنا إلى الجنوب، إلى بلاد دافئة لم يروها بعد».

ومع الصباح الباكر انطلقوا في رحلتهم الطويلة على شكل ٧ كبيرة في السماء. كانت الأم تقود فراخها بينما كان الأب في آخر السرب يرعاه ويحرس الشاردين والشاردات.

طاروا نهارهم كله في أعالي السماء، وحلقوا فوق الرياض الرحبة والغابات الهائلة حتى أدركوا مع المساء سلسلة من البحيرات تتلألأ مثل عقد الفيروز.

كانوا يتأرجحون في الهواء وهم يهبطون شيئا فشيئا على شكل نصف دائرة ليحطوا في أقرب بحيرة ويرتاحوا على وجه الماء.

وفجأة سمعت قائدة السرب أزيزا كأنه طلقة الرصاص، فأسرعت بإعلان الخطر: «هَنك! هنك! خطر، خطر!».

وانحدر السرب كأنه الدوامة، غير أن انقضاض الباز عليهم بجناحيه الجبارين جعلهم يفرون في كل وجه.

كان ذكر البط في مؤخرة السرب، وكان هو الذي أصيب.

وصاح سرب البط كله في ذعر: «هَنك! هَنك» ففي أقل من لحظة كان الريش الناعم المنتوف يملأ الهواء كأنه حبات الثلج.

غير أن قوة اللطمة تبددت فقد امتصها الجسد الموسّد جيدا بالريش.

وسرعان ما تمالك ذكر البط جأشه ومضى مع سربه جنوبا. أما الباز فقد ارتطم على حافة البحيرة وانكسر جناحه.

وظل الباز هناك لا يصطاد – إذا أسعده الحظ– سوى الفئران. وكان ينام ليلا في جوف شجرة يابسة خوفا من الثعلب وابن عرس. كل فطنته استهلكها ليبقى حيا في قسوة هذا الشتاء الطويل .

ومع تباشير الربيع تماثل جناح الباز للشفاء فراح يطير من وقت لآخر طيرانا قصيرا متقطعا.

كانت الشمس ترتفع في زرقة السماء يوما بعد يوم، وبدأ البط يعود إلى مواطنه الشمالية الباردة. ففي كل يوم كان الباز يرى سربا أو سربين يطيران فوق البحيرة لكنه برغم كل المغريات لم يجرؤ أبدا على الهجوم. كان الجوع قد هده، وكان يخاف أن يخاطر بجناح مكسور.

ذات يوم حط بقربه سرب ثرثار من البط راح ينعش صدره اللماع بموج البحيرة الهادئة.

قال ذكر البط العجوز متباهيا: «هنا يا أطفالي، في هذا المكان تماما، انقض على أبيكم في الخريف الماضي باز وحشي. ويجب أن أقول لكم أنني لم أنج بحياتي إلا لأنني استهلكت كل براعتي وفطنتي في المراوغة. وأفضل من هذا كله أن عدونا المستشرس سقط على الأرض وانكسر جناحه. ولا شك في أنه قد شبع موتا إما بالجوع أو لأنّ ثعلبا أو مينكاً قد أكل هذا المخلوق الشرير».

وعند هذه الكلمات، عرف الباز عدوه القديم، فعادت إليه كل شجاعته.

قال: «نعم، برغم ذلك كله فإنني حيّ أرزق»، ثم انطلق كالصاعقة على عدوه القديم الذي كان يرتاح ويروي مآثره بغرور كبير.

«هَنك! هَنك» صرخ البط جميعا، ثم تطاير مذعورا في كل اتجاه كأنه أوراق الخريف المتساقطة. لكن الباز لحق بذكر البط العجوز وبدأ بطراده في طيران التفافي تارة ومدوم تارة حتى أصاب عنق عدوه الطويل اللماع، وقصفه بلطمة واحدة من جناحه الذي شفي تماما.

لا تسرع بالبهجة، وليس من الحكمة أن تروي بطولاتك على مسمع من عدوك.

العشيّة السادسة

قال الحكواتي العجوز: « هه، يا شاتانّا، وإذن فقد اصطحبت معك الدب «ماتو»، هذه الليلة. أرجو أن يكون هادئا فلا يزعج طلبة العلم».

قالت شاتّانا: «ياجدي، يقينا أنه سيكون هادئا. إنه يطيعني. وإنه ليس مزعجا كبعض حيواناتنا الأليفة. سوف يقعي هنا إلى جانبي هادئا ويسمع الحكاية».

وتحلق الأطفال جميعا حول النار الملتهبة؛ الصبيان وقد تربعوا، والبنات وقد جلسن بشيء من الإنحراف كما تفعل السيدات المحتشمات.

لم يكن الأطفال يعلمون أن هناك وليمة جاهزة لهم في عنبر الكوخ هذا المساء. فالوليمة جزء من حكاية الليلة. وحيثما تتضمن الحكاية حديثا عن الطعام الطيب، فإن من عادات بني «سو» البهيجة أن يقدموا أشهى الطعام.

كانت العجوز الطيبة زوجة الحكواتي قد أعدت طبقا عارما من أجود أنواع الرز البري، رز داكن اللون لكن طعمه لا ينسى. وكذلك أعدت لكل طفل طبقا سخيا من رز مسلوق ومرشوش بسكر مستخرج من شجر القيقب. حتى الدب ماتو سسيشارك أحباءه الصغار في هذه الوليمة عند نهاية قصة:

الراكون* وشجرة النحل

كان الراكون نائما طوال النهار في جوف الشجرة المريح.

حين استيقظ، كان غسق الليل يملأ السماء، فتمطى مرة أو مرتين، ثم قفز من مسكنه في قمة تلك الشجرة الطويلة اليابسة، وهمّ بالبحث عن وجبة عشائه.

كانت هناك بحيرة في قلب الغابة. وكانت كل كائنات الماء على طول ضفاف البحيرة تحذّر بعضها من الراكون المقترب.

البجعة كانت أول المنذرات، ثم تلاها طائر الكركي مرددا صرخة الإنذار. ومن وسط البحيرة راح آكل السمك يعيد صدى الإنذار في طيرانه الخفيض فوق مياه البحيرة الهادئة.

في البدء راح الراكون يخطر بفرح واستبشار، لكنه حين لم يجد طيرا غافلا يصطاده التقط قواقع بلح الماء من الضفة فكسرها والتقم لحمها الشهي.

بعد قليل، فيما كان الراكون يتواثب هنا وهناك في دغل الأعشاب المكتظة حط بقوائمه الأربع على عائلة كاملة من الظربان؛ على الأبوين وصغارهما الإثني عشر. كانوا نياما ومتضامين كأنهم جسد واحد في تخت وثير من الأعشاب اليابسة.

«هه.. مامعنى هذا؟ هه»، قالها أبو الظربان باستغراب، ثم وقف بوجه الراكون متحديا.

وأجاب الراكون باستعطاف: «أوه. لا تؤاخذني، لا تؤاخذني. أنا آسف، آسف جدا. لم أقصدها أبدا. كنت أركض في طريقي، ولم أركم أبدا».

«خير لك أن تنتبه وتعرف أين تطأ في المرة المقبلة». هكذا دمدم أبو الظربان قبل أن يتوارى من وجه الراكون الذي فرح بهذه النتيجة.

حين تسلق الراكون شجرة طويلة وجد في أعلاها سنجابين أحمرين في عش واحد. ولكن قبل أن يضع مخالبه على أحدهما سمعهما يوبخانه بعنف من أعلى فرع في الشجرة.

وناداهما الراكون: «إنزلا يا صديقيّ، ماذا تفعلان هناك في الأعالي؟ لماذا؟ أنا لا أريد أن أوذيكما بشيء».

قال السنجابان:«آغ. إنك لا تستطيع أن تضحك علينا».

ومضى الراكون في سبيله إلى أن وجد في عمق الغابة شجرة كبيرة خاوية جذبته إليها رائحة حلوة غريبة.

راح يشمشمها ويشمشمها ويطوف بها مرة بعد مرة حتى رأى شيئا يقطر من شق ضيق فيها، فذاقه ووجده حلوا شهيا.

وطاف بالشجرة يعلوها ويهبطها إلى أن وجد منفذا دسّ فيه مخلبه. ثم أخرجه فإذا هو مطلي بالعسل.

وغمرته السعادة. راح يأكل ويغرف، ويغرف ويأكل العسل الذهبي بمخلبيه كليهما إلى أن تقطّر وجهه كله بالعسل.

وفجأة أراد أن يحك أذنه بمخلبه، فأحس بألم شديد. وبعد قليل بدأ أنفه المرهف يخزه وخزا أليما فحاول أن يحك وجهه بمخلبيه المعسولين كليهما. ثم صار الوخز أسرع وأوجع حتى إنه بدأ يقاتل الهواء بجنون، ونسي في تخبطه أن يظل ممسكا بالغصن فسقط إلى الأرض مدويا بصرخات الفزع.

وهناك تدحرج وتدحرج على ورق الشجر المتساقط إلى أن اكتسى به من رأسه إلى

قدميه.

التصق الورق بفرائه المعسول. وكان أسوأ ما في ذلك أنه غطى عينيه ووجهه، فاندفع بعنف نحو الغابة يقتله الخوف والألم، وراح يطلق صيحات النجدة لعل هناك أحدا من بني جنسه يسعفه.

كان القمر ساطعا، فخرج كثير من مخلوقات الغابة من مكامنه.

وسمع راكون ثان صيحات النجدة واتجه إليه. لكنه حين لمح ذلك الشيء المخيف المغطى بالورق اليابس يتجه اليه بسرعة جنونية قـفـلَ عائدا يطلب النجاة ، إذ من يدري ما هو هذا الشيء!!.

أما الراكون العسلي فصار يطارده لعله يدركه ويستعطفه أن يتخلص من ورق الشجر.

واستمر الطراد حتى خرج الراكونان من الغابة إلى الضفة البيضاء المتلألئة حول البحيرة. وهنا شاهدهما ثعلب، لكنه ما أن وقع نظره على ذلك الشيء الغريب العجيب الذي يطارد الراكون الخائف حتى قـفـل هاربًا بأقصى سرعته.

في هذه اللحظة كان الدب يثب خارجا من الغابة ويحاول أن يقعد على وركيه فرآهما يعبران. ولكن ما أن وقعت عيناه على الراكون العسلي المكسو بالورق اليابس حتى فر من المشهد وتسلق شجرة قريبة.

ولم يكن الراكون العسلي حتى هذه اللحظة يعرف ماذا يفعل، فقد طاش صوابه.

لقد تسلق الشجرة ولحق بالدب ممسكا بذيله، فعوى الدب بجنون: ووو... ووو حتى أفلته الراكون العسلي.

كان الراكون العسلي منهكا يقتله الخجل من نفسه. لقد فعل الآن ما وجب عليه أن يفعله منذ اللحظة الأولى. لقد قفز في الماء فاغتسل من معظم أوراق الشجر، ثم عاد إلى شجرته المجوفة وطوى جسده فيها. وهناك راح يلعق فراءه الناعم ويلعقه ويلعقه حتى عاد نظيفا، ونام.

صياد منتصف الليل يصطاد راحة نفسه.

* الراكون raccoon، من ثدييات أميركا، شكله ما بين الثعلب والدب.

العشـــيّة السابعة

هذه الليلة باردة وصاحية يتلألأ في سمائها وجه القمر.

بُعيد العشاء وصلت تاناغيلا بعباءتها وثوبها المصنوعين من جلد الغزلان. شعرها مرفوع فوق وجه ملوح بالشمس. وكانت تجر أخاها على الثلج في درع سلحفاة.

ضحك «سموكي داي» العجوز من قلبه حين رآها. كان ينتظر الأطفال على باب الكوخ. ثم وصل بعدهما طفل على زلاقة بدائية مصنوعة من أضلاع الجاموس الملفوفة بالفرو الناعم، وطفل آخر في جلد كبير غير مدبوغ استعاره من أمه.

بعد مسيرتهم المرحة عبر القرية المشعشعة بضوء القمر وصل الأطفال جميعا إلى كوخ معلمهم وكلهم شوق إلى استماع حكايته الممتعة:

الغـُـرَيـْـر* والـدب

تحت أقدام التلة بيت دافىء مريح يعيش فيه الغـُـرَيـْـر. وكانت تعيش معه الغـُـرَيـْـرة الأم وصغارها بسعادة وعافية، ذلك لأن الغـُـرَيـْـر الأشهب العجوز كان صيادا ماهرا.. وتقول الحكايات أنه كان يستعين بفن السحر في صناعة سهامه لأنه ما خاب ولا مرة واحدة في إحضار اللحم اللازم والإحتياطي.

ذات يوم، ظل الغـُـرَيـْـر في بيته يصنع السهام الجديدة. كانت زوجته مشغولة بتقطيع وتقديد اللحم الفائض من صيد الأمس، بينما كان الصغار يلعبون حول البيت لعبة «الغـُمّيضَة».

وفجأة وقف على الباب ما حجب النور عن البيت.

خبأ الصغار وجوههم من الخوف، لكن الغـُـرَيـْـر الأب نهض ورحب بالغريب ترحيبا لطيفا. كان دبا أسود يرجفُ من الهزال وراء جلده الأوبر، وتتطلع عيناه الحمراوان بنهم إلى قطع اللحم الشهية المعلقة.

قال الغـُـرَيـْـر العجوز: «هه. تفضل واسترح يا صديق»، ثم أشعل الغليون الطويل وقدمه للدب بينما كانت الأم تشوي شريحة ممتلئة من لحم الطرائد الشهي فوق الفحم وتقدمها للضيف في طبق خشبي.

والتهم الدب طعامه كما يأكل الإنسان الجوعان، ولما شبع جرجر جسده الثقيل ومضى.

وعاد الدب في اليوم التالي، والذي بعده، والذي بعده لأيام عدة. في كل زيارة كان يدعى وفقا للعادة. وكان الغـُـرَيـْـر الصياد الماهر الكريم يولم له أفضل الطعام.

وذات صباح حضر الدب ومعه كل عياله. كان يبدو بطينا معافى. وبكل همجية وفظاظة طرد الغـُـرَيـْـر وعياله من بيتهم المريح الممتلىء بالطعام والكساء.

مضى الغرير وعياله المشردون إلى الغابة لعلهم يجدون ملاذا أو مأوى . كانوا يبكون بكاء مرا. في تلك الليلة الباردة ناموا جميعا تحت صخرة كبيرة وهم يرتجفون من البرد. ونام الصغار دون عشاء لأن الغـُـرَيـْـر لا يستطيع الصيد بدون سهامه.

قال الغـُـرَيـْـر: «حسنا. لا بد من أن أستجدي لكم!».

وكرّ راجعا إلى بيته العتيق حيث يعيش فيه الدب وعياله ويسمنون.

وهناك على مدخل بيته القديم وقف الغـُـرَيـْر وراح يسأل من فيه أن يعطوه قطعة صغيرة من اللحم.، ثم قال: «صدقوني أنني لن أزعجكم، لكن صغاري يموتون من الجوع».

وقف الدب غاضبا فنهره، ثم طرده خارجا. أما صغاره الأشرار فراحوا يهزأون منه ومن هزاله وجوعه. كلهم ضحكوا منه إلا أصغرهم وأبشعهم الذي كان عرضة دائمة لسخريتهم وأذاهم.

كان حزينا لما آل إليه حال الغـُـرَيـْر المسكين. فراح كلما غفلت العيون يختلس قطعة من اللحم ويمضى بها إلى مكمن الغـُـرَيـْر وعياله فيرميها لهم ثم يمضي عائدا إلى البيت.

وتكرر ذلك مرات عدة. بذلك أنقذت هدية الدب الصغير الطيب القلب عيال الغـُـرَيـْر من الموت جوعا.

وأخيرا جاء «المنتقم» الذي يولد عادة من قطرة دم بريئة. كان طويلا جدا، قويا وجميلا، يخافه كل الأشرار. وارتجف الدب لمرآه. وسرعان ما أسرع إلى المكمن القريب للغـُـرَيـْر ودعاه إلى الطعام. لكن «المنتقم» وصل قبله.

هكذا دعا الدب زوجته وصغاره أن يلحقوا به، وبدأ بالفرار. كان يركض بأسرع ما يستطيع، ويتطلع ما بين منكبيه من آن لآن، لأنه كان شديد الخوف. ولم يعد أبدا، أما عائلة الغـُـرَيـْر فعادت واستعادت بيتها بفرح.

رأس الوَضاعة نكران الجميل.

* الغـُـرَيـْر badgerr حيوان ليلي شرس من أكلة اللحوم ذو قوائم قصيرة ومخالب قوية.

العشـيّة الثامنة

«هه يا تيونا. رأيتك اليوم مع قوسك الجديد وسهامك. أرجو أنك لم تعجل بعرض براعتك في السلاح الجديد عجلة تؤذي مخلوقات مسالمة»، قال المعلم العجوز بوقار للصياد الفتى الذي وصل مقطوع الأنفاس.

وأضاف: « لقد تعلمتَ أن الحيوانات في قديم الزمان وافقتْ على أن تضحي بحياتها من أجلنا حين نحتاج إلى طعام أو جلود أو عباءات، ولقد تعلمتَ أيضا أننا ممنوعون من القتل من أجل التسلية».

وتساءل الصبي: «لماذا يا جدي؟ لقد لحقت بسنجاب أشهب من شجرة إلى شجرة،

ورميته أكثر من مرة، لكنه كان يفلت من السهم في الوقت المناسب».

واستمر العجوز:« وهل كنت جائعا حينذاك؟ هل كانت لك حاجة في هذا الصديق الصغير لو أنك قتلته؟ في قديم الزمان، كان هناك سنجاب عقد معاهدة سلام مع صبي يافع مثلك. وسأقص عليكم هذه الحكاية الليلة».

تميمة الحظ السعيد

ذات زمان كان هنالك زوجان عجوزان يعيشان مع أحفادهما في قلب غابة هائلة. كان فقرهم موجعا شديدا، لأن ضعف الجد العجوز لم يكن يعينه على الصيد، ولأنه طالما عاد من صيده ليلا خاوي اليدين.

الجدة العجوز كانت تلتقط الأعشاب وأنواع التوت البري، لكن بصرها للأسف صار ضعيفا لا يساعدها.

وهكذا، كانت تمر أيام طويلة لا يجدون فيها طعاما.

ذات يوم أحس الصبي بجوع شديد فقال لجده: «ياجدي! كل ما أريده أن تصنع لي قوسا وقليلا من السهام، وانظر كيف سأصطاد لطعامنا جميعا».

في يوم صيده الأول التقى بعصفور القرقف الذي ناداه: «ارم السهم عليّ. إنني أريد أن أضحي بحياتي لأشبعكم».

ورماه الصبي، ثم حمله إلى البيت. لكنه ما أن ألقى بهذا العصفور الصغير الهزيل أمام جدته حتى لم يعد قرقفاً بل صار حجلة كبيرة سمينة مما ملأ قلب العائلة الفقيرة بالفرح.

وصاح الجَـدان: آه يا حفيدنا، يالك من صياد»!

وحين ذهب الصبي إلى الصيد في اليوم التالي مشى طويلا دون أن يعثر على صيد. لكنه في النهاية ظن بأنه سمع أحدا يضحك من أعماق الغابة.

ومضى الصبي في اتجاه الضحكة التي صارت تقترب وتعلو. وشيئا فشيئا صار على يقين من أنه سمع من يناجي نفسه ، وأنه بدأ يميز بعض الكلمات على الرغم من أنه لم يكن يرى أحدا.

«ها، ها»، راح الصوت يسقسق بمرح. «لا شك في أنني أسعد مخلوق حي. إني أقفز وانتقل من غصن إلى غصن طوال النهار. إنني سريع كالبرق، ولهذا أنجو من أعدائي بسهولة، ولست أخاف على حياتي السعيدة الحرة إلا شيئا واحدا هو أن يرميني فتى بنصل سهم أخرق.

وما أن سمع الصبي هذا حتى تقدم بشجاعة لتلمح عيناه عشا مريحا في تجويف شجرة كبيرة.

راح الصبي يختلس النظر داخل العش الدافيء الممتلىء بكل ما لذ وطاب من أنواع

الجوز. كان صاحب العش يرقص ذيله الممتلىء في القرنة فوق سرير من الأعشاب اليابسة، لكنه ما أن رأى الطفل حتى صرخ بخوف وفر سريعا إلى جوف الغابة.

وركض الطفل وراءه بأقصى سرعته في طراد طويل باغت به السنجاب أخيرا. كان السنجاب قابعا على غصن فوق رأس الصبي.

قال السنجاب: دعني أنج بحياتي ولسوف أعطيك سحرا يجعلك صيادا ماهرا ما دمت حيا.

ووافق الصبي، فرافقه السنجاب إلى عشه حيث ملأ كيس صديقه من كومة الجوز.

هذا الجوز يا صديقي يجلب الحظ السعيد. ضع جوزة واحدة في كنانتك حين تخرج للصيد ولسوف تقتل دبا.

وهذا ما فعله الصبي. ومن يومها صار صيادا شهيرا ملأ قلب أهله بالسعادة وملأ بيتهم باللحم.

لا تؤذ أخا أضعف منك. إن السنجاب نفسه قد يأتيك بالحظ السعيد.

العشـيّة التاسعة

قال «سموكي داي»: سأحكي لكم الآن يا أحفادي عن شخصية معروفة جدا لدينا، ولعلها من أعاجيب شعبنا. إنها شخصية رحالة عظيم، يبدو أنه يعرف كل شيء. إنه طيب القلب، لكنه مختال فخور يحتال كثيرا على من يلقاهم في طريقه.

ليس هناك أحكم من أنكتومي (العنكبوت) أو أبرع منه. ومع ذلك فإنه يتظاهر ببراءة الأطفال وبساطتهم. إن مغامراته كثيرة، يفوز فيها أحيانا بأفضل الحيوانات، وأحيانا يفوزون عليه ويخدعونه حتى يصير ضحكة وعبرة.

إننا جميعا قد نستخلص العبرة من حكايات أنكتومي وحيله الماكرة، ونتعلم كيف يجب علينا أن نحترز من هؤلاء المخادعين الذي يدخلون علينا في ثياب الأصدقاء.

أنكتومي وصرة الأغاني

كان نهارا رائعا تتلألأ فيه الشمس. وكانت أسراب طيور البط المهاجرة شمالا تحط على ضفاف البحيرة الصغيرة لترتاح وتنعش أجسادها بمياه البحيرة الباردة.

كانوا سعداء ويضجون بالفرح والبهجة. لكنهم، فجأة، أطبق عليهم الصمت، وتوقفوا عن الهرج والثرثرة، فقد لاح لهم عند منحنى البحيرة شكل غريب يقترب منهم ؛ شكل يشبه إنسانا عجوزا وقد تقوس ظهره تحت حمولة كبيرة تبدو كأنها كومة من عشب

يابس.

وما أن اقترب العجوز بحمولته الهائلة حتى صاح واحد من أجرأ البط: «كواك، كواك! ما عندك هناك»؟

أجاب أنكتومي مبتسما: « اوه. إنها ليست أكثر من صرة أغنيات قديمة».

إنه هو ذلك الإنسان الحكيم البارع صاحب الأذى.

عندها زال خوف البط وبدأوا يتراقصون من حوله ويوكوكون قائلين:

«غننا أغنية قديمة يا أنكتومي»!

وبسعادة بالغة ألقى أنكتومي حمولة ظهره فوق ضفة البحيرة، وبكل طيبة قلب راح ينصب خيمة مخروطية من العصي ثم يسقفها بالعشب اليابس.

ولم تمض دقائق قليلة حتى انتصبت الخيمة، فدعا البط إلى دخولها بكل لطف وأدب.

هكذا تدافع البط بخفيف أجنحته وريشه اللماع داخل الخيمة حتى ازدحمت به.

وكان أنكتومي هناك أيضا، واقفا على باب الخيمة يغني:

«اشتوغ موس وا شي پو

تو وا إيتو وان كين

إشتاه نه شا كتا

(ارقصوا بعيون مغمضة

فكل من ينظر منكم ستصبح عيونه حمراء)».

كل سرب البط الغبي أغلق عينيه بإحكام. كان يرقص داخل الخيمة فيما كان أنكتومي يغني ويلتقطها من أعناقها بطة بعد بطة؛ ينتزعها بسرعة ويرميها إلى الخلف.

ولا بطة واحدة تمكنت من الوكوكة. كان العمل متقنا. وعما قليل لن تكون هناك بطة واحدة تستمع للأغنيات القديمة!

بعد برهة قصيرة فتحت إحدى صغار البط عينيها خلسة فرأت أنكتومي يملطُ رقاب رفاقها فصرخت بذعر: «طيروا، طيروا! إنه يقتلنا جميعا».

وانتفض ما تبقى حيا من سرب البط . اندفع بأجنحته القوية وأصواته المذعورة، فتساقطت خيمة القش وتحطمت. وبذلك نجا كل سعيد الحظ.

كان انكتومي واقفا، وبجانبه ما يكفي لوليمة كبرى.

أما تلك البطة الصغيرة التي نبّهت رفاقها فاحمرّت عيناها إلى الأبد.

وأحب الصغار هذه الحكاية كثيرا، لكنها كانت أقصر من المعتاد.

وسألوا الحكواتي العجوز:«أخبرنا عن الوليمة. أخبرنا عن وليمة أنكتومي».

وهكذا بدأ «سموكي داي» من جديد:

عندها أحب انكتومي أن يولم وليمة. وكان أول ما فعله أن نادى بأعلى صوته: «شاغاه آ–وو پو –و –و (ليأتني أحد بمغلاة)».

ظل ينادي وينادي طويلا. وأخيرا ظهر أَحدهم ومعه المغلاة. كان ثعلبا. وكان يحمل المغلاة بفمه.

وتناول أنكتومي البط الذين ملط رقابه فذبحه، ثم أشعل نارا وأحضر ماء ورمى البط في المغلاة.

كان متعبا وجائعا، فأراد أن يرقد قليلا إلى أن ينضج البط. هكذا استلقى فوق الرمل الدافىء، وأراد من «وجهه» أن يبقى منتبها، أن ينتفض إذا ما اقترب أحد، فيوقظه.

عندما نام انكتومي، عاد الثعلب يصطحب رفيقا له. ولم ينتفض وجه أنكتومي كما أمره أن يفعل، فقد حوله الثعلب بلطف وسأله أن يكون هادئا.

بعد ذلك أكل الثعلبان كل قطعة من اللحم البض وأعادا العظام إلى القدر.

وعندما أفاق أنكتومي وتمطى، كان جوعه في أوجه.

نظر في القدر ليرى ما إذا كان قد نضج عشاؤه فلم يجد إلا العظام.

قال لنفسه: «ها. لقد نضج البط أكثر من اللازم ولا بد أن يكون اللحم في قاع القدر.

وحين اكتشف أن العظام سلخت من لحمها جن جنونه، ولطم وجهه بقسوة لأنه لم يوقظه في الوقت المناسب!

من يخدع الآخرين لا بدُ أن يُخدع .

العشية العاشرة

لم يكد الأطفال يدخلون كوخ الحكواتي العجوز في الأمسية العاشرة حتى قال بعضهم: «قل لنا حكاية ثانية عن أنكتومي يا جدنا!».

قال العجوز: «آه، لقد ظننت أنكم ستسألون شيئا آخر. هناك قصص كثيرة عن أفعاله مع أمة الحيوانات. كان يحب أن يختلط بهم وأن يتخذ لنفسه بعض أشكالهم أحيانا ليستغفلهم بسهولة. نعم قد تنجح هذه الأحابيل في بعض الأحيان، ولكنها في كثير من الأحيان سرعان ما تجعله يصرخ : كفى»!

أنكتومي والأيل

إنه منتصف الصيف والأيائل ترعى بأعداد كبيرة على سفوح الجبال الخصبة. كانت تطوف بقاماتها المعافاة البدينة الجميلة حيثما يحلو لها؛ ترعى من العشب الريان اللذيذ، وتشرب حتى تترع من غدران الجبال الصافية، ثم تضطجع وترتاح باطمئان في الظلال الخضراء، هربا من قيظ النهار.

أما أنكتومي الذي كان مرهقا من سفره الطويل، مكدود القدمين، جائعا، فإنه ما أن رآها حتى أكله الحسد. وقال لنفسه: «آه. مثل هذا النعيم لا يصلح إلا لأنكتومي. ولا شك في أن هذه الأيائل أسعد من في الأرض، لأن لديها وفرة من كل شيء، ولأنها سريعة الركض لا تخاف شيئا.»!

لهذا أخفى قوسه وجعبة سهامه وثيابه وما معه من أسلحة في شجرة خاوية لعله يتظاهر للأيائل المذعورة بأنه مسالم عريان من كل شيء.

ولما رأته الأيائل يقترب منها بدون سلاح ظلت في حالها ساكنة لم تحفل به.

وقال بعضها لبعض مرتابا: «ها هو أنكتومي قد جاء».

وناشدها أنكتومي:« آه، يا إخواني. إنكم تعيشون في سلام مع القبائل، وأنتم تُطلّون على الوادي، وترون تحتكم كل ساكنيه. ليس هناك سعيد مثلكم! ألا تجعلوني واحدا منكم»؟

وأجاب زعيم الأيائل:« يا صديق! إنك لا تعرف ماذا تطلب؟ نحن الآن في منتصف الصيف. ثيابنا وأسلحتنا جديدة. طعامنا وافر. ولعلنا نبدو سعداء. إن قروننا، وهي سلاحنا الوحيد، ما تزال غضة. والذئاب والنمور تعتدي علينا بلا رحمة. إن أملنا الوحيد في النجاة هو سرعتنا، ذلك لأن الذين يعيشون على اللحم وأخطرهم الإنسان يرصدوننا بعيونهم الوحشية»!

أجاب أنكتومي: « أعرف هذا كله. قد يكون لدى الآخرين سلاح أقوى من سلاحكم، لكنني أبدا لم أشهد جمالا كجمالكم، ولا قواما رشيقا كقوامكم، ولا عرفت عند غيركم مثل حرّيتكم وسعة عيشكم. إنني أستعطفكم أن تسمحوا لي بأن أشارككم ذلك».

قالت الأيائل: «نقبلك إذا نجحت في الامتحان. لاحظ عيوننا – علينا أن نكون في يقظة مستمرة، وانظر آذاننا – إنها في ترقّب دائم! هل تستطيع أن تشم رائحة العدو إذا جاء بوجه الريح؟ هل تستطيع أن تشعر بوقع خطاه قبل أن يقترب»؟

ونجح أنكتومي في الإمتحان وتم قبوله واحدا بين الأيائل، بل إنهم جعلوه زعيما لهم كما أحب أن يكون.

قالت الأيائل: «أما وقد جعلناك الآن زعيما لنا فعليك أن تقودنا وترشدنا لنكون في مأمن من الصيادين».

وراح انكتومي ينحدر بالأيائل إلى أسفل الهضبة فخورا بأطرافه الطويلة و«قرونه الجليلة»، كان يركض من حين لآخر إلى الوراء وإلى الأمام ليعيد الشارد منها إلى الصف. وحين توقفت لترتاح استلقى بعيدا عنها تحت بلوطة وارفة.

وفجأة جمحت الأيائل وفرت، فقد صاح أنكتومي بها:« طيروا! طيروا، فقد أصبتُ بسهم».

ولكن لما لم يظهر صياد في الأفق انزعجت الأيائل وقالت فيما بينها: «إن أنكتومي يخدعنا. كل ما هنالك أن عودا سقط عليه من الشجرة».

ثم استلقت الأيائل من جديد. وللمرة الثانية استُنفرت عبثا. كانت هذه المرة أكثر استياء، فقال بعضها لبعض: «كل ما هنالك أن سقطت عليه جوزة بلوط وهو نائم»!

وعادت للراحة مرة ثالثة.

لكنها، هذه المرة، هي التي أحست بالصياد، ففرت بعيدا عن انكتومي، وتركته نائما. وحين وصل الصياد وجد زعيم الأيائل نائما فرماه بسهم وجرحه جرحا بليغا.

وأحس أنكتومي بخوف شديد وألم قاتل، وندم وقال يا ليتني لم أصبح أيلا بين الأيائل، ذلك لأن حياتها محفوفة بالأخطار.

وكانت الأيائل قد علمته:

أن من الحكمة أن تقنع بما أنت فيه فليست هناك حياة بدون متاعب وأخطار.

العشية الحادية عشرة

قالت العجوز الطيبة زوجة «سموكي داي»: «تأخرتم الليلة يا أولادي».

كانت واقفة في واجهة المدخل المنخفض تلوّح من وراء طيات ملحفتها الداكنة لهذه القامات الصغيرة المكابدة وهي تقترب رويدا رويدا وتنظر إلى الأضواء الكثيرة التي تبص فوق الثلج.

قالت تاناغيلا بصوتها الناعم:«لقد أعدّت أمي وليمة هذا اليوم. كان هناك كثير من المدعوين، ولهذا لم أستطع المجيء أبكر. انظري يا جدتي لقد جئتك بشيء من الرز المسلوق ولحم الغزال. وعندما صارت داخل الكوخ الدافيء أخرجت الطبق الممتلىء من تحت ثوبها الجلدي.

وبرقت عينا الحكواتي العجوز لمنظر الطعام الشهي، وقال: «آه، آه! يبدو أن لدينا وليمة شهية هذه الليلة. ومن أجل ذلك سأحكي لكم عن الوليمة وما جرى بعد ذلك».

كان أزيز النحلة الطنانة مسموعا في كل أرجاء الغابة، ومن أول الوادي العميق إلى آخره، فقد كان لدى انكتومي الكريم وليمة عامرة تولت النحلة فيها الإعلان عنها ودعوة المدعوين.

كانت تعلن بأعلى طنينها: «هاي، يا كل من زحف، وكل من أزّ وطنّ، يا كلّ الكائنات الصغيرة التي تطير بدون ريش، تعالوا اليوم إلى المهرجان. كلكم مدعو لعرض أفضل ما لديه من براعة ومهارة: العلجوم الذي لا يركض، وأخوه الضفدع مع فرقته الموسيقية، وحتى السنجاب الطائر والبقية الباقية. إن تاناغيلا ، العصفور الشادي سيتولى الحكم على الجمال، والخفاش سيحكم على المهارة في الطيران، وذلك الثعبان الطبيب الحكيم سيكون بين الحضور».

كان صدى الدعوة يتردد من صدوع شجر الأرز المتهدل إلى قمم الهضاب العابقة برائحة الصنوبر.

كان ذلك في تموز تحت قمر التوت الأسود.*

وعند الشلال الهادر الذي اختير مكانا لعقد المهرجان توافدت كل الكائنات الصغيرة. كان الوادي السعيد يصدح بملايين الأصوات.

لهذا قرر انكتومي الحكيم أن يوكل إلى بعض «المحاربين» حفظ النظام، فاجتماع هذه الأعداد الكبيرة من الكائنات المختلفة قد يتسبب في ظلم أو عدوان.

أما الذئب فقد أمر بمراقبة التلال المحيطة حتى لا يتسلل المعتدون، وأما البومة فتولت حفظ النظام في مكان المهرجان، وأمرت بأن تحرص على أن لا يعتدي الخفاش أو الصقر الليلي أو السنونو على الحشرات الصغيرة أو يزعجها.

وافتتح المهرجان بباقة من المدائح قدمتها مجموعة من المنشدين بنجاح؛ أغنية الشروق قدمتها «تا- شي- يا -كا» قبّرة المروج، وشاركها فيها الجراد بأدواته الموسيقية المرهفة.

ثم بدأت مباريات الجمال التي ربحت فيها الفراشات بغلالاتها الشفافة الملونة الجائزة الأولى.

لكن الخفاش الذي كان عليه أن يحكم بين المتبارين في الطيران مكر ببعض المتبارين والمتباريات والتهمهم. لهذا هاجمته البومة لتصده عن عدوانه فثار الشغب والإرتباك.

ولم يستطع أنكتومي أن يفعل شيئا: السنونو يبتلع الزواحف الصغيرة، الثعبان يهاجم السنونو، وكذلك نزل الذئب من موقعه على التلال ليهاجم الكائنات الصغيرة المسالمة.

بذلك بدأ الافتراس واشتعلت بين هذه القبائل الحمقاء حرب لم تنطفىء حتى هذا اليوم.

ليس من الحكمة أن يتولى الأقوياء حكم الضعفاء.

* شهر تموز يسمى «قمر التوت الأسود»، وفي بعض اللهجات «قمر الكرز الأحمر».

العشية الثانية عشرة

حين صار كل الأطفال في أماكنهم قال المعلم العجوز: «سنستمع الليلة إلى حكاية العمل الصالح الذي عمله أنكتومي».

«في قديم الزمان؛ الزمان الذي لا يتذكره أحد، لم يكن هناك شيء أرهب وأكثر إخافة من «إيا» الذي لا يشبع. كان روحا مفترسة تنشر الرعب في الأرض من أولها إلى آخرها. وكان يستطيع أن يلتقم كل المخلوقات الحية في فمه البشع الفاغر دائما وأبدا. كان شكله وحشيا مخيفا. ولم يكن أحد يعلم ماذا يخيفه ولا كيف يتغلب عليه. لقد ابتلع شعوبا وقبائل كاملة كما يبتلع المرء ريقه.

وفي النهاية استطاع أنكتومي ببديهته الحادة وأساليبه الذكية أن يقضي على أكبر أعداء جنسنا. كان من الصعب قتله، لأنه كثيرا ما يقوم بعد موته حيا يرزق من جديد. ولعلني أعني بـ «إيا» الجوع الشديد، والمرض الذي ينتشر كالنار من بيت لبيت ويقضى على قرى بأكملها*».

«إيا» المفترس

ذات زمان، فيما كانت امرأة عجوز تجمع الحطب عثرت في أعماق الغابة على طفل رضيع، فحملته معها إلى منازل أهلها وأعطته لابنة الزعيم الجميلة. كانت الفتاة طيبة القلب رَعَت الطفل الرضيع كأنه طفلها.

كانت تطعمه دائما، لكنه لم يكن يشبع أبدا فيبكي ويطلب المزيد. وحين يبكي، كان فمه ينفتح من الأذن إلى الأذن. وهناك وراء حلقه الأحمر أحست الفتاة بأن هناك حشودا من البشر تتعذب وتستجير. لكنها لم تخبر أحدا بل كانت ترعى الطفل بصبر وتحمله معها أينما ذهبت.

في أواخر الليل، والناس نيام استيقظت الفتاة الطيبة على بكاء الطفل. ولكن ما أن انحنت فوقه حتى خيل إليها أنها تسمع في عمق شدقيه المنفتحين على اتساعهما أصواتا بعيدة لبشر يستغيثون وكأنها تصعد من أعماق الأرض.

عندها مضت الفتاة إلى أبيها الزعيم فأيقظته، وقالت له:

« يا أبي! تعال استمع إلى صوت طفلي».

وأصغى الزعيم للحظة، ثم قال بذعر كبير: «يا ابنتي هذا «إيا» الذي يفترس كل شيء،

حتى القرى بما فيها. وما تسمعينه هو عويل الكائنات التي ابتلعها. إنه الآن يتخذ شكل طفل بريء. لقد جاء ليدمرنا».

«دعيه نائما، وعلينا الآن أن نهرب سريعا وبعيدا قبل الصباح.»

وبهمس خافت أيقظا النائمين، فطووا خيامهم بهدوء فيما كان الطفل راقدا في خيمة الزعيم التي تركوها وراءهم منصوبة حتى لا يشعر بشيء.

وسافروا طوال الليل بأقصى ما يستطيعونه من سرعة. ومع الصباح أقبلوا إلى ضفة نهر واسع عميق. وهنا وصل أنكتومي البارع فالتقاهم باسما يفرك يدا بيد.

حين علم بما دعا القبيلة إلى الفرار ليلا قال لهم بلطف إنه سيساعدهم على عدوهم الجبار.

لم يرغبوا في ذلك. كانوا خائفين. ثم إنهم خافوا أن يحتال أنكتومي عليهم فيتفاقم الخطر.لكن أنكتومي أصر، ومضى على آثار خطاهم للقاء «إيا» المفترس.

ولم يمض بعيدا حتى رأى «إيا» يسرع الخطى وراء الهاربين. كان شدقاه مفتوحين ببشاعة على وسعهما، وكانت ساقاه الضعيفتان تنوءان بجسده المكتظ.

قال أنكتومي بابتسام:«إلى أين يا أخي الأصغر»؟

أجاب «إيا» بغضب: «كيف تجرؤ على مخاطبتي بأخيك الأصغر؟ ألا تعلم أنني أول من خلق على هذه اليابسة»؟

– «وإذن فإنني فعلا أكبر منك لأنني خلقت على وجه المياه قبل أن تظهر اليابسة. إنني أعلم مَن تطارد يا أخي الصغير، وقد جئت لمساعدتك. إن هؤلاء البلهاء الذين تجري على آثارهم قد خيموا على النهر قريبا جدا، فدعني أرشدك إليهم حالا. إنهم لن يفلتوا منك. لماذا لا ترتاح قليلا وتتسلى بهذه المشهيات التي أعددتها لك؟ إنظر إلى هذه الآذان البشرية، لقد جففتها بعناية من أجل طعامك».

وما أن أنهى أنكتومي كلامه حتى أشار إلى كومة من صدَف بلح البحر على قمة التلة. وخدع الوحش الجشع فابتلع كومة الصدف بنهم مما سبب له ألما كبيرا شله عن الحركة وجعله سهل القتل. هكذا عاد أهل القرية سريعا فقتلوه وشقوا جسده الضخم بسكاكينهم ثم تدفق الناس من كل صوب وبدأوا بالرقص والغناء وأناشيد التمجيد والفرح بنجاتهم.

* إشارة إلى الأوبئة المعدية التي نشرها المستعمر الأبيض بين أهل أميركا في أكبر حرب جرثومية عرفها التاريخ البشري، إذ تقول التقديرات أن ٦٠٪ من الضحايا (حوالي ٦٧ مليونا من أصل ١١٢) سقطوا بهذا السلاح الجرثومي.

العشية الثالثة عشرة

قال «واولا» أشجع الصبيان قبل أن يعم الهدوء وتكتمل الحلقة: «ألم تكن خائفا ليلة الأمس يا جدي؟، إن الرعد في ليلة القمر الأرمد لا يقصف عادة! إن أختي الصغيرة بكت بمرارة، وقال عمي أن ذلك نذير شؤم».

وأجاب العجوز ببسمة مشرقة: «نعم! هكذا كان يبدو لي من قبل. لكنني الآن أصبحت رجلا عجوزا، ولطالما سمعت طائر الرعد يدوي دويا أعظم من ذلك، في أوانه وغير أوانه، ولم ألحظ أبدا أن ذلك آذى أحدا من أهلنا. إنني أعتقد أن «السر الأعظم» أوكل إلى جنوده حمايتنا من هذه المخاوف حتى لا نجزع كما كنا نفعل في الأيام الخالية عندما كانت قوانينها مجهولة تماما.

وهناك حكاية قديمة جدا عن هذه المسائل، سأحكيها لكم الليلة».

حروب «وا – كي – يان» و «أنك –تاي –هي»

«وا – كي– يان» هو طائر العاصفة والإعصار.

ومنذ بداية الأشياء أوكلت إليه نظافة الأرض والأجواء العليا والإعتناء بنقاوتهما. ومع أن طريقه محفوف في بعض الأحيان بالموت والدمار فإنه يعمل بأمر «السر الأعظم»، وعمله كله خير.

لكن «وا– كي– يان» لا يحكم إلا نصفا واحدا من السنة. أما النصف الثاني فيحكم فيه «وا–زي– ياه (روح البرد)». الذي يتولى أمر العناية بنقاوة الهواء والماء.

حين يهب «وا– زي– ياه» ريح الشمال، صانع البرد، تلبس الحيوانات ثيابا أسمك، ويغير بعضها لونه ليشبه لون الغطاء الذي يكسو الأرض. وفي ذلك الفصل تحتبس المياه وتنام الأشياء وترتاح.

بعد ذلك يهب «هي– يوكاه» ريح الجنوب الذي يسمى أيضا بالريح المجنونة. إنه رسول طائر الرعد، وهو الذي يلقي على الأشجار والسهول بكسائها الأخضر.

ومنذ العصور الخوالي وهناك حرب مشتعلة بين طائر الرعد زعيم الجو الأعلى وبين وحش المياه «أنك–تاي–هي» زعيم الأعماق.

ما أن يظهر السحاب الأسود في السماء ويلقي بظله المخيف على المياه حتى تحسّ الأسماك بنذير الخطر ودعوة لها حتى تنزل إلى منازلها المائية، في تلك العوالم العميقة المظلمة بعيدا عن مرمى سهامه ونباله.

كذلك يجب على طيور البحر أن تبحث عن مخابئها وملاجئها، أن تطوي غطاءها الناعم الأملس وتخلد إلى السكون لأن «وا– كي – يان» سيجرف الرياح والمياه بجناحه الجبار

ويعاقب العصاة.

*كل شيء كان ساكنا قبيل مجيئه. من زفيره العاصفة، ومن قرع طبله دوي الرعد. أما لمعان البرق فشفرة فأسه **. عند مجيئه، يتفجّر وجه الأعماق، ويزحف محاربوه البيض كتيبة كتيبة إلى اليابسة لتتكسر عند صخور الشاطىء مدوية بهتاف الحرب. ومع هذه الحرب بين روح الريح وروح المياه يختبىء الأحياء ويرتجفون من الخوف.*

واخيرا يظهر صانع السلام الأعظم، الشمس، ممسكا بيده قوس قزح كأنه راية متعددة الألوان وعلامة على انطفاء نار الحرب. إنه يرد كل محارب إلى مكانه. ثم ينزل الهواء من أعاليه رخيا ليلعب مع الموج الهادىء الراقص على وجه المياه. هذا أبونا الذي اتخذ من أمنا الأرض زوجة؛ أبو أجسادنا جميعا، وإنه لا يتمنى لأولاده كلهم إلا الأمان والسلام. لهذا فهو يرصد من علياء سمائه هؤلاء العصاة، وسرعان ما يطفىء نار حروبهم.

* معظم العواصف والأعاصير –لا سيما في شرق الولايات المتحدة– تهب في فصل الصيف

** في الأصل كلمة «توماهوك»، وهو نوع من الفؤوس التي يتخذها الهنود سلاحا.

العشية الرابعة عشرة

سأحكي لكم الليلة عن أول إنسان، وكيف ظهر على الأرض بدون أب أو أم. استمعوا جيدا يا أبنائي ولا تنسوا هذه الحكاية أبدا.

الرجل اليافع

في بداية الأشياء، وجدَ «المخلوق الأول» نفسه يعيش وحيدا.

كانت الأرض هنا قبله ترتدي العشب الأخضر والغابات الكثيفة، وتسكنها قبائل الحيوانات. وكان كل شيء يحكي لغة واحدة ويلقى المخلوقَ الأول بالترحاب أينما حلّ في هذا العالم أو رحل؛ في البر أو في أعماق البحر.

ولما عاد المخلوق الأول ذات يوم إلى خيمته المخروطية بعد سفر طويل أحس بألم في قدمه اليسرى. ويا لدهشته! كان هناك ما يمزق إبهام القدم ليخرج منها.*

ولما استل هذا «الشيء» من إبهامه قذف به إلى الأعلى عبر فتحة الدخان. ثم سمعه يتدحرج ويقرقع فوق الخيمة المغطاة بلحاء شجر البتولا. وفي اللحظة التي لامس فيها الأرض سمع المخلوق الأول بكاء أول طفل وليد.

وسرعان ما نهض المخلوق الأول واحتضن الوليد الذي كان أول رجل يافع هنا على وجه الأرض، وكان أبا الجنس البشري.

وشب الرجل اليافع وترعرع بسعادة تامة في ظل صديقه وأخيه الأكبر وبفضل إرشاده وحكمته. صحيح أنه بدون أب أو أم، وليس لديه من يتسلى معه أو يلاعبه غير الحيوانات، فإنه قيل إنه ليس هنالك مولود من أبوين عاش سعيدا حرا كما عاش.

في تلك الأيام عاش الرجل اليافع والحيوانات بسلام. كانت تتحداه في مباريات ودية. وكان المخلوق الأول قد علّم أخاه الصغيركيف يفوز عليها بالحيل الذكية واستخدام الأدوات. لكنه لم يكن يفوز دائما لأن الحيوانات بقوتها الهائلة كانت تغلبه أحيانا.

ذات صباح خرج الرجل اليافع كالعادة لكنه لم يعد تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها. وانتحب المخلوق الأول وبكى فقيده طويلا. ثم غضب وقرر أن يبحث عن عظام أخيه.

وسافر المخلوق الأول عبر العالم بين المشرق والمغرب، لكنه لم يجد أثرا لأخيه. كل المخلوقات البرية التي سألها عن أخيه قالت إنه لم يمر بها ولا بديارها.

ثم جاب ضفاف الأنهار والبحيرات الكبرى. وذات يوم سمع امرأة عجوزا تغني وهي تحتطب على حافة الماء. واقترب المخلوق الأول ليسمع كلمات الأغنية. ويا لدهشته، كانت أغنية لرقصة النصر؛ رقصة انتزاع فروة الرأس، وفيها ذكرت العجوز اسم أخيه الفقيد الرجل اليافع.

هنا تقمص المخلوق الأول شكل طائر الرفراف الذي يعيش على ضفاف الأنهار ويقتات بالسمك. ثم دنا من السمّورة العجوز وحكى معها دون أن يثير ريبتها. ومنها عرف أن أخاه الأصغر قد جُذب إلى المياه العظيمة ليحطمه وحش الأعماق «أنك – تاي – هي».

عندها مضى إلى الضفة وتقمص شكل صنوبرة باسقة عظيمة تورف على البحيرة.

وظل المخلوق الأول على هذه الحال شهورا وشهورا** إلى أن شاهد كتلتين عظيمتين تنهضان من وسط الأمواج. ثم انزلق الوحشان إلى الشاطىء وارتميا تحت أقدامه ينعمان بدفء الشمس ويرتجّان براحة مع ارتجاج الماء. انهما «أنك – تاي – هي» وزوجه.

قالت زوجة «أنك – تاي – هي» مستغربة:«منذ عصور وعصور يا زوجي، ونحن نستجم في هذا المكان، ومع ذلك فإني لم أر هذه الشجرة من قبل أبدا».

أجاب وحش المياه: «يا زوجتى. هذه الشجرة كانت دائما هنا».

– «لكنني على يقين أنها لم تكن هنا من قبل».

وعندها لف «أنك – تاي – هي» ذيله المحرشف العظيم حول شجرة الصنوبر العملاقة وحاول اقتلاعها من جذورها. كانت المياه ترغي وتزبد وتفور مع حركته العنيفة، لكن المخلوق الأول صمد قويا مما دفع الوحش إلى اليأس والإقلاع عما عزم عليه.

قال «أنك – تاي – هي» لزوجته: «ألم أقل لك أن هذه الشجرة كانت هنا دائما؟». وبدت

زوجته مقتنعة بكلامه. ولم تمض فترة حتى أسلمتهما حركة الموج إلى النوم.
وهنا عاد المخلوق الأول إلى شكله وراح يطعن الوحشين برمحه الطويل إلى أن غاصا إلى بيتهما في قاع البحيرة الكبيرة يئنان من الألم بينما كانت المياه تفور فوقهما وترغي بدمائهما.

* الخيمة المخروطية teepee هي الخيمة البدائية التقليدية للهنود.

** يستخدم الهنود لفظة القمر تعبيرا عن الشهر، فهم يعتمدون التقويم القمري، ويسمون الشهور بقمر كذا وقمر كذا وفقا للموسم.

العشية الخامسة عشرة

لم يدخن الجدّ غليونه الطويل كثيرا قبل اجتماع الأطفال لسماع نهاية الحكاية في هذه الليلة. كان شاتّانا قد استعطف أباه أن يخبره عمّا إذا كان تم العثور على الرجل اليافع، لكنه أجبِر على الإنتظار لسماع بقية الحكاية من معلمه العجوز.

عودة الرجل اليافع

اتخذ المخلوق الأول شكل السنونو، ثم طار منحدرا من أعالي الجرود إلى سطح البحيرة يحلق فوقها؛ يتفحصها ويراقبها. كانت طيور الماء في مخابئها بين أشجار الصنوبر في وليمة كبيرة. بعضها يغني، وبعض يرقص. وكان معها ذلك الرجل الطبيب الحكيم، طائر الغواص، يغرد بلحنه المقدس.
وطار المخلوق الأول على شكل السنونو إلى حافة المياه، ثم راح يخاطب طائر الغواص باحترام كبير ويسأله عن بعض أسرار طبه.
كان طائر الغواص لطيفا جدا فعّلمه بعض الأغاني السرية وأراه كيف يعالج المرضى.
قال السنونو: إذا سمحت لي أن أتخذ شكلك لوقت قصير فإنني سأغط إلى الأعماق وأحاول أن أعالج «أنك – تاي – هي» وزوجته من جراحهما المميتة.
ولم يعارض طائر الغواص.
هكذا اتخذ المخلوق الأول شكل طائر الغواص «الطبيب»، ثم وقف على قوس الموجة متماسكا وصرخ بأعلى صوته قبل أن يغطس عميقا، عميقا، عميقا في المياه الزرقاء!
وهناك في العالم المائي، رأته المخلوقات كأنه منقض من السماء. كان اندفاعه الكبير قد أوصله إلى قلب غابة كبيرة من أعشاب البحر، فإلى السهوب الرخوة الشاسعة، فإلى واد عميق من العوالم السفلى حيث وجد كل المخلوقات تنتظره بلهفة. وكانت السلحفاة

العجوز أول من استقبله واستعطفه أن يسرع لأن الزعيم وزوجته في خطر كبير.
وما أن دخل إلى خيمة وحش الماء حتى أعلن: « ليخرج كل من هنالك، لأنني لا أستطيع أن أعالجه إلا إذا كنت وحيدا».
وبامتعاض، خرج كل من كان هنالك. وكانت السلحفاة آخرهم.

قالت السلحفاة للآخرين أنها سمعت الساحر الكبير يهمس وهو يلمس مصراع الباب:«آه يا أخي الأصغر» فهذ المصراع مصنوع من بشرة جلد أخي الرجل اليافع.
وحين صار المخلوق الأول في الداخل لم يأبه لجراح الوحشَين، بل سرعان ما التقط بشرة جلد أخيه، ورأى حية الماء الصغيرة تتجسس عليه خلف البوابة. أما الآخرون الذين كانوا مرتابين فأرسلوا كشافا لينظر ماذا يفعل الطبيب.
واستدعى المخلوق الأول حية الماء إلى الداخل وأجبرها على إخباره أين يجد عظام أخيه. ولكي يكافيها فإنه لوّنها بالأخضر وجعلها تزحف على بطنها إلى الأبد.
وجمع المخلوق الأول كل عظام أخيه ثم حملها معه إلى اليابسة. وهناك أشعل نارا وحمّى فيها حجرا من أجل بناء أول كوخ سعيد. كذلك جمع حزمة من أغصان المُـكـنُـس وأحضر ماء في صدفة كبيرة.
بعد أن لف عظام أخيه ببشرة جلده الناشفة لفا محكما، وبعد أن بنى فوقها سقفا من أماليد الصفصاف الطرية غطى الكوخ بأغصان خضر وراح يرش الماء بحزمة المُـكـنُـس على الحجر المحمّى.
وتصاعد البخار فملأ البيت. ومع تصاعد البخار تصاعدت تنهيدة ضعيفة.
وحين رش الماء للمرة الثانية سمع قعقعة في الداخل وكأن العظام اليابسة كانت تجمع بعضها بعضا.
وفي المرة الثالثة سمع صوتا كصوت غناء من بعيد.
وعندها تكلم الرجل اليافع الصغير راجيا اطلاقه من الكوخ.

العشية السادسة عشرة

قال «سموكي داي»: «هذه الحكاية طويلة، لا تنتهي في ليلة واحدة ولا في عدد من الليالي. بعض مغامرات الرجل اليافع لا بد لها من شتاء آخر. هذه الليلة سأحكي لكم كيف انقطعت الصداقة القديمة بين الإنسان وبني الحيوان».

الحرب الأولى

ما أن مضى شيء من أول الزمان حتى بدأ بنو الحيوان يغارون من ذكاء الإنسان وعقله. ولما خافوا من أن تكون له السيادة عليهم بدأوا يتآمرون عليه.

في ذلك الوقت بدأ الرجل اليافع يسأل أخاه الأكبر: «يا أخي، لماذا تملك كل هذه الحيوانات أسلحة، كتلك الرماح على رؤوسها والخناجر في أفواهها بينما أجدني عاريا بدون سلاح»؟

وأجاب المخلوق الأول بحزن:

« يا أخي الأصغر، لقد حان الوقت لكي أعطيك سلاحا، وإنني حزين لذلك. ها إننا أخيرا نشهد حربا مستعرة في قلب الإنسان وقلب الحيوان. إنهم كثير وأنت واحد. ولهذا سوف أعينك!»

عندها أعطاه قوسا قويا ونبالا ذات نصال من صوان، وأعطاه رماحا ذات أسنّة حجرية، ثم علمه الرماية.

بعدها رمى حجرة في الهواء فارتدت ساقطة كأنها جدار من صخر يطوق مسكنهما. ثم رمى بحجرة أخرى، فأخرى، حتى صارا محاطين بجرود صخرية عالية من كل جانب.

فوق الذروة المسطحة للجرد نشر الرجل اليافع أسلحته الجديدة التي قدّر لرؤوسها الحجرية أن تتناثر بعد انتهاء المعركة بعيدا ومديدا في الأرض، يبحث عنها البشر [في زمن لاحق] ويحتفظون بها آثارا و شواهد على أول مجهود حربي.

أول من دق طبول الحرب الأولى جاموسٌ بري كان ينطلق بأقصى سرعته فوق المروج. كان هذا الرسول يعيـّن لكل دورَه في الهجوم: السمّور يسد مياه الغدران، والغـُرَيْـر يحفر الخنادق تحت دفاعات الرجل اليافع لعل مسكنه يغرق بالماء، السناجب والأرانب وغيرها من الحيوانات الضعيفة تمون المحاربين بالطعام وأبرزهم: الدب، والذئب، والقط النمري، والثور الوحشي. السنونو يحمل الرسائل إلى الطيور، وسمكة السلمون المرقطة تنقل الأخبار إلى القبائل المزعنـّفـة، فقد كان على بني الحيوان جميعا أن يشاركوا في الحرب.

مع تباشير الفجر الرمادية أطلق الذئبُ عواءً طويلا جدا كان أولَ صرخة حرب كسرت صمتَ العالم وسلامه.

وحين ارتفعت الشمس راقصةً لوهلة قصيرة على حافة السماء الحادة دوت أصوات بني الحيوان كلهم بصيحة الحرب؛ من خوار البهائم العظيمة وزئيرها إلى عواء الذئاب ونحيح الأفاعي وصياح ذات الريش، حتى أعلاها صياح الكركي وآكل السمك.

ووقف الرجل اليافع على أعلى الجدار صامدا ينظر إلى المحاربين المهاجمين من كل الجهات وكل ما يطاله البصر. كانوا يتقدمون ولوقع قوائمهم رعد في الأرض. أما في

السماء فإن النسر زعيم حرب الجو كان يقود قواته المجنحة، بينما راحت الزواحف والدبابات تجمع المعلومات عن دفاعات الرجل اليافع في الأعلى.

كان صامدا غير هيّاب يرمي بمئات السهام التي لم يخطىء سهم واحد منها هدفه إلى أن ضاق وجه الأرض بصرعاها.

ها هي جيوش هائلة من المجنّحات الصغيرة تهاجمه بأسلحتها الحادة السامة. وكان أخوه الأكبر قد نسي أن يعلمه كيف يصدها عنه، غير أنه سرعان ما أعلمه بأن يحك صوانتين لتقدح منهما شرارة تشعل النار في الورق اليابس المتساقط.

ولم يمض وقت حتى ارتفعت سحابة عظيمة من الدخان وتعالى لهب النار إلى السماء. بذلك تقهقرت المجنحات الصغيرة وانهزم جيش العدو وتبلبلت صفوفه أمام النار التي لم ير مثلها من قبل.

هذه النار التي لا يشعلها إلا الإنسان ما تزال هي الفزع الأكبر لكل المخلوقات.

بهذه الحرب أقر بنو الحيوان بسيادة الإنسان. وحين التمسوا منه السلام وافقوا على أن يمنحوا لحمهم لطعامه وجلودهم لكسائه. أما الإنسان فوعدهم بأن لا يقتل للتسلية. كذلك وافق الرجل اليافع على أن تحتفظ الحيوانات بسلاحها دفاعا عن نفسها.

وتلك هي أول هدنة في الأرض.

العشية السابعة عشرة

قالت تاناغيلا بخجل: «يا جدي، أليس الليل جميلا بعد العاصفة. إن القمر يبدو لي دائما كأنه امرأة جميلة تلقّح وجهها الدائري المتألق بملحفة من غيم، وتهرب منا أحيانا كأنها متعبة أو غاضبة. لكنها هذه الليلة تبتسم وتسفر عن وجهها، ولهذا خرج الشباب جميعا من بيوتهم يعزف كل منهم على نايه قريبا من بيت حبيبه»!

ليس من عادة هذه الفتاة الصغيرة أن تتحدث طويلا، بل إن من عادتها أن تخبىء وجهها حين تنتهي من الكلام. لكن الجد العجوز ابتسم لتلميذته المفضلة بتسامح، ثم أجاب:

«ألم تكوني تعرفين أن القمر امرأة يا حفيدتي. لقد حان الوقت لأحكي لكم عن كل هذه المسائل.

معشوق الشمس

في قديم الزمان، ترك رجل وامرأته وطفلاهما بيتهم ليعيشوا وحدهم بعيدا.

وذات يوم خرج الرجل للصيد كعادته. لكن المساء جاء ولم يرجع الرجل.

ومضت زوجته في غد تبحث عنه فلم ترجع أيضا.

هكذا بقي الأخ الأكبر وأخته وحيدين، لكنهما لم يكونا بائسين. كان الصبي قويا شديد البنية كالرجال. وكان يملأ بيته لحما. وكانت الفتاة تطبخ الطعام، وتدبغ الجلود، وتصنع الأحذية والملابس.

وظلا على هذه الحال عددا من الشهور.

وذات صباح باكر، بُعيد خروج أخيها للصيد، عشيت عينا الفتاة بشعاع خاطف. في تلك اللحظة دخل عليها الكوخ شاب جميل طويل. وظنت للوهلة الأولى أن أخاها قد عاد فقد كان الشبه كبيرا، لكن الشاب لم يتصرف كأخيها بل كان كمن جاء ليطلب يدها. وظل لديها بعض الوقت، ثم غادر قبل عودة الأخ.

وشعر الأخ الشاب أن أخته بادية الاضطراب تخفي شيئا.

حين سألها ظلت صامتة. وعاد فسألها ثلاث مرات إلى أن حكت له في اليوم الثالث كل الحكاية.

قال لها: «غدا سأمضي باكرا كعادتي، لكن لن أمضي بعيدا. فإذا جاء ضيفك أبْقِه حتى أعود».

وفعلا، مضى الأخ الشاب في صباح اليوم التالي غير بعيد، واختبأ في شجرة خاوية ليراقب منها الكوخ.

ولم يكد عاشق الفتاة يظهر حتى عاد الأخ غاضبا، وهاجمه فورا.

ولبرهة قصيرة تصارعا بصمت دون أن تتحقق الغلبة لأحد منهما. وفي النهاية أحس الأخ أنه مغلوب فصاح بأخته:

«النجدة، النجدة، يا أختي»!

ولم تعرف الفتاة ماذا تفعل، لكنها التقطت بلطة وكادت أن تضرب بها أحد الشابين لولا أن صرخ بها:

«انتبهي يا أختي»!

ولما رفعت بلطتها لتضرب الآخر صاح بها أيضا: «انتبهي يا أختي».

واضطرب الأمر عليها، لأن الشابين متشابهان جدا، وليس من السهل معرفة من هو أخوها فعلا.

وأخيرا، قررت أن أن تضرب الغريب، لكنه راوغها بلمح البرق وقال:

«يا صديق. توقف عن المقاومة! لم أجيء لأؤذيك أنت أو هذه السيدة، وإنما لأجعلها زوجتي. إنني أنا الشمس، فإذا جاءت معي ستصبح القمر وستبسط سلطانها على الليل».

وهنا – قال الجد – أذعنت الفتاة ومضت معه. ولكن، كما ترون، فإنها لا تشع كل ليلة

لأنها لم تكن إلا امرأة فانية دب إليها الملل سريعا».

«إنكم تعلمون أننا ندعو الشمس جدّتنـــا، وندعو القمر جدّتنا، وأننا نؤمن أن النجوم أطفالهما. ولا بد أن أحكي لكم ذات يوم كيف أن نجما أحب امرأة من الأرض».

العشية الثامنة عشرة

قال المعلم العجوز: في قديم الزمان، كان بنو الإنسان وبنو الحيوان أكثر صداقة، بل كانوا يحكون ويتفاهمون بلغة واحدة. في ذلك الزمان، اتخذ الإنسان من الحيوان حبيبا أو زوجا، لكن أولادهما لم يكونوا على مستوى الإنسان الأول نبلا وصلاحا، فقد كان فيهم شيء من الحيوان. وهنالك حكايات كثيرة من هذا النوع، معظمها حكايات طويلة يصعب فهمها.

لعلكم سمعتم حكاية «تيدونا» و«تنكدونا» (الداخلي والخارجي) حيث كان الطفل أخا شقيقا لجرو الدب، يلتقيان ويلعبان معا في الخفاء. إنني سأحكيها لكم ذات ليلة، أما الآن فسأحكي لكم حكاية غيرها.

«كسّارة الحطب» و «قاطفة التوت»

في قديم الزمان حين كان الإنسان وبنو الحيوان يحكون لغة واحدة، أحس شاب بالملل من الحياة وحيدا وبدأ يبحث عن زوجة.

ولم يكد يرحل بعيدا حتى وصل إلى غدير رقراق، أقيم عليه سد من أجل بناء بركة صغيرة مستديرة. وكان على طرف البركة بيت جميل على شكل قبة، وعلى مقربة منه امرأة حسناء تكسّـر الحطب.

وقف الشاب يراقبها طويلا من وراء شجرة. ولما ارتاح لمرآها وأعجب بعملها كشف لها عن نفسه فاستقبلته الفتاة التي كان اسمها «المرأة السمّورة» بترحاب.

وبعد وقت قصير اتفقا على بناء عشهما الزوجي.

حين ولد له صبي منها، رغب الوالد المبتهج أن يحمله إلى قومه ليروه. لكن زوجته لم توافق، وقالت له:

«إذا كان لا بد من عودتك إلى أهلك فاذهب وحدك. إننا لا نستطيع أن نرافقك».

كان الشاب في شوق شديد إلى رؤية أهله من جديد فودع زوجته وابنه ومضى إلى قرية أبيه. كانت زيارة قصيرة عاد بعدها إلى بيته.

ولخيبته، لم يجد بيتا هناك، ولم يعثر على أثر للزوجة والطفل. لقد دُمر البيت، وارتُدم السد، وغارت مياه البركة. أما الغدير الذي كان يملأ المكان رقرقة وصداحا فلم يبق منه إلا

خيط رفيع من الماء.

استلقى الشاب المحزون على الأرض يبكي زوجته وطفله، إلى أن خرجت إليه من الغابة أنثى فاتنة في حلة سوداء. كانت تظن أنه خائر أو جوعان فحملت إليه بعض الجذور السكرية وشيئا من التوت. ولما أكل، مشّطت شعرَه بلطف، وغسلت وجهه. وحين استعاد نشاطه عانقته وبثته لواعج حبها حتى نسي «المرأة السمّورة» وطفلها، وتزوجها.

وانطلقا معا يبحثان عن بيت، فاختار الشاب بقعة جميلة مكشوفة ذات إطلالة فسيحة، لكن زوجته التي كان اسمها «قاطفة التوت» ضحكت منه وقالت:

«أبدا لم يعش قومي في مكان مكشوف كهذا المكان».

واختارت بقعة ظليلة تحت أقدام الهضبة. وهناك شرعا في بناء بيت مريح على أنقاض جذور شجرة عجوز ساقطة.

وعندما طلبت قاطفة التوت – الزوجة الدبُّ – منه أن يبحث عن مفرش للبيت، أحضر كثيرا من العشب اليابس، لكن الزوجة الدب لم توافقه، وقالت:

«لماذا يا زوجي! إنك تعرض بيتنا لكل العيون الطفيلية».

كل ما حول بيتهم كان أرضا جرداء كان الزوج قد اقتلع عشبها. وكان لا بد من مكان جديد يعيشان فيه.

وفي النهاية أقاما بيتهما وجعلاه مريحا دافئا. ثم مضيا للنوم، فناما إلى أن استيقظا على نباح كلب وخطوات صياد تجرش الثلج.

وضربت الزوجة الدبُّ سقف البيت فطارت حجلة من فوق الثلج تصفق بجناحيها تصفيقا قويا. ثم طارد الكلبُ الحجلةَ يتبعه الصياد.

وعندما عاد الصياد ثانية أطلقت أرنبا فلحقة الكلب وتبعه الصياد.

لكنه لما عاد ثالثة فرّت من بيتها لتنجو بحياتها، بينما كان زوجها يتبعها بأقصى ما يستطيع.

كان يركض ويركض على آثار زوجته في الثلج المتراكم إلى أن وصل إلى كوخ عتيق يسكنه دب عجوز.

قال الرجل العجوز: «إلى أين تمضي يا بني»؟

أجاب: «أوه، إنني أسافر للمتعة»!

قال الدب العجوز: «لا تحاول أن تخدعني. إنني أعرف جيدا ما تبحث عنه. إن قاطفة التوت مرت من هنا أمس في طريقها إلى أهلها».

سأل الزوج الشاب: «وأين يعيش أهلها»؟

«ليس بعيدا يا بني، ولكن خذ حذرك. إنهم قوم مخادعون ولسوف ينغصون حياتك».

بعد أن شكر الرجل العجوز ركض الزوج مسرعا إلى أن وصل إلى قرية الدببة.
كانت قرية كبيرة يبدو أنها تعيش بسعادة ووفرة فقد كان القوم يغنون ويرقصون.
وما أن اقترب الغريب حتى هبت إليه صبايا القرية كلهن مسرعات. إنهن متشابهات لأنهن جميعا ممتلئات متأنقات ومسربلات في ثياب سوداء قشيبة.
كلهن أحطن به كأنهن يردن عناقه قائلات:
«مرحبا بعودتك يا زوجي».
واغتاظ الشاب. فقد عرف أن الدببة تعمل على خداعه، وأنه إذا لم يتعرف على زوجته فإنهم سيقتلونه. ولم يعر الشاب اهتمامه لأي من الصبايا بل أدار ظهره للقرية ومضى إلى بلاد أهله.

هذه الحكاية عبرة لكل من ينشد الزواج بين الغرباء.

العشية التاسعة عشرة

قال الفتى «واولا» قبل أن يقعد الأطفال:«قل لنا يا جدنا: من هو »شانو تيداه»؟ حين كنت أصطاد اليوم سألني عمي أن أنتبه إلى »رجل الغابات الصغير»، لأنني إذا التقيته فإنني قد أضيع فلا أشم دخان منازلنا أبدا. وحين سألت عمي أين يمكن العثور عليه، وكيف أعرفه، لم يجبني إلا بضحكة ثم مضى يصنع السهام».
أجاب العجوز الطيب موضحا: إن هذا «الشانوتيداه» كائن ماكر فعلا مغطى بالشعر. إنه ليس أكبر من طفل ذي ثلاث سنين. مأواه في شجرة خاوية، وأسلحته ريش الطيور السعيدة بألوانها الفاتنة. كم يسعده أن يضلل الصياد الوحيد الذي يعثر به الحظ فيلقاه في أعماق الغابة. ولتعرفوا لماذا يُكِنُّ هذا الرجل الصغير ضغينة لجنسنا سأحكي لكم حكاية.

الصهر

في قديم الزمان، كانت هناك فتاة شابة أسر الأعداء أبويها فعاشت في الغابة وحيدة مع أخيها الأكبر دون أهل ولا جيران. كان الشاب صيادا ماهرا يصطاد ما يفيض عن حاجتهما، وكانت الفتاة تعتني بترتيب بيته ورتق جواربه. هكذا عاشا لفترة طويلة وحيدين سعيدين.
ذات يوم أراد الشاب أن يرحل ويرى شيئا من هذا العالم. لهذا دعا «رجل الغابات الصغير» وسأله أن يرعى أخته في غيابه، ثم حمل قوسه وكنانة ممتلئة بالسهام ومضى

ليكتشف بلادا غريبة.

لم يتعرض الرحالة الشاب لمغامرة حتى اليوم الثالث حين رأى عددا من الفتيان يلعبون على مدخل مسكنهم. كان المسكن يبدو وكأنه مجرد كهف داخل الهضبة.

قال الفتيان: «ها قد جاء صهرنا»، وفروا هاربين إلى داخل الكهف.

وصار الشاب فضوليا يريد أن يعرف ما معنى هذا الكلام. ثم اقتحم الكهف فرأى في مواجهة الباب شابة وسيمة كانت قاعدة وأبويها على جانب النار. وهب العجوز لاستقبال الغريب بترحاب قائلا: «أهلا يا صهري» بينما أعدت له الزوجة العجوز طعاما وسهرت على ضيافته وتكريمه.

كان واضحا أن الفتاة تسلتطف هذا الشاب الوسيم وتحبه لأنها سرعان ما نبهته بحذر إلى نوايا أبيها وما يضمره له.

قالت الفتاة: «عندما ترافق أبي إلى الصيد فاحرص على أن تبقى وراءه دائما. وإذا سألك أن تطارد حيوانا فلا تفعل، بل إرمه من حيث أنت».

وفي اليوم التالي دعا الرجل العجوز ضيفه إلى الصيد، ولم يلبثا أن رأيا «سنسارا*» في الغابة.

وصاح العجوز: «طارده، طارده يا صهري»! لكن الشاب ظل مكانه ورمى السنسار بسهم من جعبته فأرداه. وللأسف فلم يكن ذلك سنسارا بل أحد الفتيان الذين كانوا يلعبون على مدخل الكهف!

في اليوم التالي مرَّا بطائر عقعق أبيض، ومن جديد سأل العجوز ضيفه أن يطارده. لكن الشاب توقف ورماه بسهم أصاب الولد الثاني في القلب.

وراحت الفتاة تستعطف حبيبها في الصباح الثالث:« لا ترم غزالا أبيض حين تراه قادما نحوك» لأنها كانت تريد إنقاذ أخيها الأصغر.

ولم يرم الشاب على الغزال وأبقى على حياته. وبذلك عاد الأخ الثالث إلى البيت سالما. أما هو فقد عمل بنصيحتها وحرص على أن يبقى وراء العجوز حتى لا يقتله.

«آه يا صهري، لقد غلبتني. خذ ابنتي، إنها زوجتك الآن»، هكذا قال العجوز للشاب الذي مضى وزوجته عائدا إلى بيته الأول وأخته. ورافقهما الأخ الناجي ليتزوج من أخت الشاب.

كان «رجل الغابة الصغير» يحرس الفتاة ويعتني بها. وكان يحبها ويريد أن يتزوجها. ولأنهم لم يقبلوه زوجا فإنه مضى غاضبا إلى شجرة خاوية ليعيش فيها إلى الأبد، وليخاف منه كل من يمشي وحيدا في الغابة. ولهذا كانت أحلى أمانيه أن يمكر بذرية الأخت والأخ ويضللهم.

* السنسارmarten حيوان ثديي ذو فرو ثمين، من فصيلة ابن عرس.

العشية العشرون

بدأ المعلم عشيته العشرين بالقول:

«هنالك شرير آخر، لا بد أنكم تعرفونه أو أنكم التقيتم به. إن اسمه يدل عليه. إن له وجهين: الوجه الودود البشوش الذي يريه في البداية حين يرغب في أن يكسب شيئا، والوجه الأسود العابس البشع الذي يظهره لك حين ينكشف أمره ويفتضح.

تذكروا يا أبنائي أن لا تتخذوا لأنفسكم وجهين؛ وجهاً باشاً للغرباء ووجهاً مقطباً حين تكونون في البيت. حاولوا أن تكونوا كأبطال قديم الزمان، الأبطال العظام الطيبين مثل «ستون بوي [الطفل الحجر]» و«ستار بوي [الطفل النجم]» المنتَقم ذي الريشة البيضاء قاتل النسر. لو أنني عشت شتاء آخر فإنني سأحكي لكم عنهم جميعا. أما الليلة فإننا سنسمع حكاية سعيدة عن »ماشتينا» وأخيه الصديق».

الرفاق

كان «ماشتينا » الأرنب شابا وسيما كريما. وبينما كان يصطاد ذات يوم سمع طفلا يبكي بمرارة فأسرع إليه بأقصى ما يستطيع .

وفي أعماق الغابة وجد رجلا يعذب صبيا صغيرا، يقرصه ويلسعه بالسوط، لكنه كان يضحك من قلبه ويهدهد له بأغاني الأمهات.

سأله الأرنب: «لماذا تعذب هذا الطفل»؟

ابتسم الآخر ابتسامة عريضة وأجاب: «إنك تهرف بما لا تعرف! إن الطفل نكد شكس، وإنني كنت أحاول تهدئته».

ولم ينخدع «ماشتينا» لأنه عرف أن هذا الرجل «ذو وجهين» يجد سعادته في تنكيد الضعفاء فقال بإلحاح: «أعطني الطفل». وهذا ما أغاظ «ذا الوجهين» وجعله يكشف عن وجهه الأسود القبيح العابس.

قال «ذو الوجهين»: هذا طفلي، ولئن تفوهت بكلمة واحدة إضافية فإنني سأعاملك كما عاملته».

عند ذلك وضع «ماشتينا» سهما على وتر القوس ورمى الشرير فأصابه في قلبه. ثم إنه أخذ الطفل بيديه ومضى على الآثار إلى خيمة صغيرة بائسة حيث يعيش زوجان عجوزان أعميان لا حول لهما ولا طول، كان كل أطفالهما وأحفادهما صغارا وكبارا قد

تخطفهم «ذو الوجهين».

وعند الباب قال الأرنب: «مرحبا يا جدي وجدتي. لقد أعدت لكما الطفل».

أما العجوزان الأعميان اللذان لـُدغا كثيرا من كذب «ذي الوجهين» وظلمه وما عادا يصدقان شيئا مما يسمعان فقد صرخا في وجهه: «أغ، يا كذاب! إننا لا نصدق كلمة مما تقول. أغرب عن وجهنا أنت وكذبك»!

ولما رفضا أن يأخذا الطفل، والليل على الباب، فإن الشاب الطيب لفّ الطفل بغطائه واستلقى أرضا لينام.

ولدهشته فإنه وجد الطفل في الصباح التالي قد شبّ وصار رجلا وسيما يكاد يشبهه، ويكاد يقال عنهما إنهما توأمان.

قال الغريب:« يا صديقي، إننا الآن رفيقان مدى الحياة. إن كلاً منا سيمضي في طريق مختلف من العالم فيفعل الخير، كل الخير. أما إذا صار واحد منا في ضيق فما عليه إلا أن ينادي رفيقه الذي سيهب إلى نجدته فورا»!

ووافق الآخر، وانطلق كل منهما في واد. ثم لم يمض وقت طويل حتى سمع الأرنب أنينا عاليا وبكاء كأن هناك من يتعذب عذابا مبرحا. وحين وصل إلى المكان وجد رجلا عالقا محشورا بين غصنين في شِعب شجرة ضيق تلوّحه الريح حيثما هبّت، وكان في ألم شديد لم يستطع منه فكاكا.

قال الشاب الطيب:« سآخذ مكانك يا أخي».

وسرعان ما انفتح شعب الشجرة وتحرر أسيرها. ثم احتل «ماشتينا» مكان رفيقه وانطبق عليه الشعب منَ جديد انطباقا قاتلا.

كان العذاب أعظَم مما توقعه، لكنه تحمله ما استطاع دون صراخ. كان العَرَق يتصبب من جبهته بينما انتفخت عروقه حتى كادت أن تنفجر.

وحين لم يعد يطيق العذاب استغاث برفيقه وناداه فحضر إليه فورا وصدع الشجرة بقوة فانشق الشعب وأفلت «ماشتينا» منه حرا.

وتابع «ماشتينا» رحلته إلى أن رأى كوخا منعزلا على طرف الغابة. وحين شق الباب لم ير إلا عجوزا أعمى حيّاه بحرارة، وقال:

«أهلا يا حفيد! ها أنت تجدني عجوزا فقيرا لا أرى في نهاري أحدا. حين أريد الشرب يأخذني هذا الحبل إلى مجرى الماء القريب. وحين أحتاج عيدانا يابسة لنارى يأخذني الحبل الأخر إلى قلب الغابة. عندي من الطعام ما يكفيني، فهذه الأكياس ممتلئة باللحم المقدد. لكن ، وأسفاه يا حفيدي، إنني أعمى، ووحيد منعزل هنا»!

قال الشاب الطيب:« خذ عينـيّ، يا جدي، وامض حيث تشاء. أما أنا فإنني سأبقى هنا

مكانك».

أجاب العجوز: «ما أطيبك يا حفيدي» وأخذ عيني الأرنب، ثم مضى في دروب الحياة. أما الشاب فظل في الكوخ. فلما جاع أكل من اللحم المقدد في الكيس. ولما عطش أمسك بطرف الحبل وراح يتلمس طريقه إلى مجرى الماء القريب.

وهناك انحنى على حافة الماء فانقطع الحبل وسقط «ماشتينا».

كان الماء باردا، والضفة زلقة، لكنه بعد جهد جهيد، خرج من الماء وشق طريقه إلى الكوخ متهالكا مبللا. كان بحاجة إلى نار يتدفأ بها ويجفف ثيابه، لهذا أمسك بالحبل الآخر ومضى ليجمع العيدان اليابسة من الغابة.

حين بدأ بجمع العيدان أضاع طريقه إلى الحبل. وسرعان ما تعثر بجذع شجرة ساقطة وترضرض كل جسده بأغصان الشجر وخدش وجهه بالعليق والشوك.

كان العذاب قد هدّه وجعله في حال لا تحتمل فاستغاث برفيقه وطلب مساعدته.

وحضر رفيقه فورا، ورد إليه عينيه قائلا:

«يا صديقي لا تتهور في المستقبل. ما أنبل مساعدة المحتاج، ولكن قبل أن تفعل ذلك إسأل نفسك هل تستطيع الصمود إلى النهاية».

العشية الحادية والعشرون

قال العجوز: «هل تذكرون حكاية الشاب الذي تزوج من «بني دب». إن الدب يبدو لنا أحيانا شبيها بالإنسان، فهو يستطيع أن يقف، بل يستطيع أن يمشي منتصبا. إنه يبكي ويئن عندما يصاب بأذى كما نبكي ونئن، وهناك من يقول إنه يضحك أيضا. وتقول الحكايات القديمة أن «بني دب» أمة قوية، وأن هناك شابا عاش بينهم مع زوجته «ووشپي» وطفله الصغير. وربما كان هذا هو الشاب الذي حدثتكم عنه من قبل».

صانع الضحك

كانت قرية الدببة كبيرة جدا، يعيش فيها أهلها برخاء ووفرة. وكان هناك مناد يطوف بالبيوت في أيام معلومة ويعلن بصوت مرتفع أن الوقت قد حان للضحك.

كل الدببة كانت تخرج بشيوخها وصغارها، بمرضاها وأصحائها، بمقعديها وشغّيلتها فلا يبقى في بيته أحد إلا الغريب. ومع أن زوجته «ووشپي» تشارك قومها دائما فإنها لسبب ما لم تشعر برغبة في مشاركتهم أفراحهم هذه المرة، فبقيت في منزلها إلى جانبه وجانب ابنها الذي كان نصف إنسان ونصف دب.

ذات يوم، أحس الغريب بفضول شديد إلى معرفة قصة هذا الضحك، فاصطحب ابنه،

ولحق بالدببة من مسافة لا يرونه منها إلى أن انتهت مسيرتهم على شاطىء «المياه الهائلة». فلما اقترب إلى الحد الذي لا يُرى منه تسلق صنوبرة مرتفعة واختبأ في أعلى أغصانها الكثيفة، وراح يراقب ما يجري.

كان الاجتماع عند الخليج العميق الممتد داخل اليابسة. وكانت شواطئ الخليج الصخرية قد اسودت بجمعهم.

ولما أن هدأ كل شيء تقدم دب عجوز إلى حافة المياه وصاح بصوت مرتفع:

«إي – ها – وي – شا – يي – لا، إي – ها – آن – هي – پي – لو!

(يا صانعَ الضحك، جئناك نضحك)!».

وعندما نادى نداءه أربع مرات ظهر شيء من منتصف الماء وبدأ يسبح إلى الشاطىء. وبعد قليل «عربش» المخلوق العجيب بصعوبة خارج الماء ليقف على صخرة معزولة داخل المياه.

كان «صانع الضحك» مخلوقا بدون شعر، متغضنا كطفل وليد. وكان يحاول أن يدب على أطراف عجيبة مضحكة فيتأرجح بها ويتخبط. كان شكله معقولا في الماء، أما على اليابسة فكان مشوها حقيرا جعل الدببة كلها تنفجر بالضحك: «ها، ها، ها! واغ، واغ».

كانوا يرعدون بالقهقهات وترتجف بطونهم البشعة وأشداقهم المكشرة. وكان بعضهم لا يتمالك نفسه فيفلت من جذع الشجرة التي يمسك بها أو يزلق من الصخرة الرابض عليها فيهوي على قفاه «متشقلبا» فوق رؤوس الجمع ليثير مزيدا من المرح والقهقهات. وكانت كل حركة يؤتيها «صانع الضحك» تثير موجة جديدة من الضحك المدوي.

وفي النهاية تنحلّ قوى الدببة ويشلها الضحك عن الحركة فتنقلب مئات منها فوق الرمل غير قادرة على النهوض. ثم يتقدم «الرجل» العجوز من جديد ويصيح:

«إي – ها – وي – شا – يي – لا، وان – نا – إي – ها آن – تا – پي كتاي دوو!

(يا صانع الضحك، إنا نموت من الضحك)».

وهنا يسبح المخلوق الصغير عائدا إلى المياه العميقة ويختفي.

أما الغريب – على قمة الصنوبرة – فلم يكن سعيدا بالمنظر، بل كان لا يرى فيه ما يضحك أبدا.

وحين نهض الدببة عائدين إلى بيوتهم نزل من الشجرة ومعه ابنه الذي كان يحاول أن يقلد الدب الكبير العجوز. هكذا مضى إلى الشاطىء وحيدا وراح ينادي بصوته الحاد: «يا صانع الضحك، جئناك نضحك!». ومع النداء الرابع ظهر الرأس الأملس الأسود للمخلوق العجيب فوق المياه.

«ها، ها ، ها!»، كان الطفل يضحك ويقول لأبيه بأنفاس منقطعة:« لماذا لا تضحك يا

أبي. هذا شيء مضحك جدا».

أما الأب فكان بادي التجهم فيما كان الطفل يضحك، ويضحك عاليا إلى أن انقلب على قفاه وراح يتدحرج فوق رمل الشاطىء ويكاد يموت من الضحك.

وهنا صاح: «بابا، إذا لم تنته هذه المضحكات فإنني سأموت».

عندها تناول الأب قوسه وفوّقه بسهم حاد. ثم نظر إلى ابنه المحتبس الأنفاس ورمى «صانع الضحك» رمية أصابته في القلب. بعدها مضى إليه فسلخ جلده، وعاد به مع ابنه متسللا إلى قرية الدببة.

وحين نادى المنادي بالدببة من جديد أن قد حان وقت الضحك كان جلد «صانع الضحك» قد جف، لكن «بني دب» لم يعرفوا شيئا عن ذلك، بل مضوا إلى شاطىء «المياه الهائلة» كعادتهم وتركوا الشاب وحيدا مع طفله. أما هو فخاف من الإنتقام والقتل فحمل جلد «صانع الضحك» ليجعل منه كنانة لسهامه ، ثم مضى مع طفله عائدا إلى أهله.

العشية الثانية والعشرون

قال الجد: «هناك من يقول إن بطل الحكاية التي سأرويها لكم يشبه الشاب الطيب »ماشتينا» الأرنب الذي سمعتم حكايته منذ فترة قريبة. ولعلكم تذكرون أنه كان وسيما جدا وسخيا جدا. إنه هنا في هذه الحكاية الجديدة عاشق تكيد له امرأة عجوز شريرة. لكن الحب ينتصر في النهاية على أعدائه ويرد عليهم كيدهم.

الهاربان

في قديم الزمان، كان هناك شاب أحب أن يسافر بعيدا عن وطنه بحثا عن المغامرة. وفي يوم من الأيام وصل إلى قرية غريبة على حدود غابة كبيرة. غير أنه وهو على تخوم القرية رفع نظره عاليا فرأى فوق رأسه بين أغصان الشجرة منصة تقعد عليها فتاة تخيط بإبرتها.

وبدلا من أن يدخل القرية كما كان عازما فإنه مشى قليلا ثم عاد ليمر تحت الشجرة مرة بعد مرة. كان يمشي قليلا، ثم يعود وينظر فوق رأسه إلى أجمل فتاة رآها في حياته.

وظل أياما يتسكع على حدود الغابة ولا يكشف عن نفسه للناس. وأخيرا قرر أن يتحدث إلى الفتاة وأن يطلبها للزواج. أما الفتاة فإنها لم تصده وتنفر عنه بل قالت له:

«يجب أن تكون حذرا، لأن جدتي لا تريدني أن أتزوج. إنها امرأة شريرة مؤذية وقد تمكنت من قتل كل من خطبني».

أجاب الشاب: «وإذن فلا بد من الهرب. إذا جاء الليل ونامت جدتك فشقّي طرف الباب واخرجي. إنني سأكون في انتظارك».

وفعلت الفتاة ما قال لها. ثم هربا في تلك الليلة فلم يكد يصبح الصباح حتى كانا بعيدين عن القرية. وكانت طوال الطريق تتلفت كأنها تنتظر من يطاردها، فقال لها حبيبها: «لماذا تتلفتين وراءك؟ إنهم لن يفتقدوك حتى يتضح النهار، ومن المؤكد أن أحدا لن يستطيع أن يدركنا الآن».

أجابت الفتاة: «آه، إن لجدتي سحرا قويا. إنها تقطع رحلة الأيام الطويلة بخطوة واحدة. وإنني على يقين أنها على آثارنا».

قال الشاب: «في هذه الحال، سترين أن لدي أنا أيضا شيئا من السحر». وعندها رمى بواحد من قفازيه على الأرض. ويا للدهشة، فإن آثارهما صارت آثار جاموس. ثم إنه رمى بالقفاز الآخر فتحول إلى جاموس راقد عند نهاية الآثار.

«انها لن تدركنا أبعد من هذا»، طمأنها الشاب. لكن الفتاة هزت برأسها ولم تتوقف عن الإلتفات وراءها من حين إلى حين.

والحقيقة أنه لم يمض وقت طويل حتى لاحظت جدتّها العجوز من بعيد تتقدم بخطوات واسعة وتهز بعصاها ورأسها الأشيب للهاربين.

قالت الفتاة:« هذا دوري»، ورمت مشطها الذي تحول وراءها إلى غابة كثيفة أعاقت أغصانها الملتفة تقدم العجوز.

وحين خرجت العجوز من الغابة وبدأت تقترب منهما، رمت الفتاة مخرزها وراء ظهرها فصار سلسلة وعرة من الجبال ذات جروف غائرة وقمم عالية أخرت تقدم العجوز فترة أطول من المرة الماضية. لكن سحر الجدة كان قويا وكانت تطارد العاشقين بشراسة.

في هذا الوقت أشرفا على ضفة نهر واسع عميق، فتوقفا لوهلة لا يعرفان كيف يقطعانه بدون قارب أو مخاضة. كان هناك زوجان قريبان من طائر الكركي فتقدم الشاب منهما يستعطفهما:

«ياصديقيّ، أرجوكما أن تقفا متقابلين على الضفتين وأن تمدا عنقيكما فوق النهر لعلنا نعبره فوقهما بأمان. إذا فعلتما هذا فإنني سأعطيكما حلية جميلة لصدريكما وهدّابا طويلا على ساقيكما تصبحان معه أوسم الطيور».

واستحب طائرا الكركي ذلك فوقفا على الضفتين متقابلين ومدا عنقيهما حتى التقا منقاراهما في منتصف النهر. وهكذا عبر العاشقان فوق عنقيهما بأمان.

قال الشاب للطائرين: «أريد أن أسألكما معروفا آخر. إذا جاءتكما امرأة عجوز إلى طرف النهر وطلبت مساعدتكما فمدا عنقيكما وليلتق منقاراكما كأنكما تعينانها على العبور. ولكن حين تصير على منتصف طريقها انسحبا واتركاها تسقط في وسط النهر.. إفعلا ذلك وإنني أعدكما بأنكما لن يعوزكما شيء أبدا».

بعد وهلة وصلت العجوز إلى حافة النهر لاهثة شديدة الغضب. وما أن رأت طائري الكركي

حتى بدأت تعنّفهما وتأمرهما:

«اقتربا هنا يا ذا العنقين الطويلين، أيها المخلوقان المشوهان ساعداني على عبور النهر!

ووقف طائرا الكركي على طرفي النهر منقارا لمنقار. ولكن حين عبرت الجدة الشريرة نصف طريقها سحبا عنقيهما فسقطت مطوحة في الهواء وهي تلعن وتنذر وتتوعد. وسرعان ما جرفها التيار بعيدا وغرقت، لأنه ليس هناك سحر ينتصر على الحب الصادق.

العشية الثالثة والعشرون

قال المعلم العجوز مرحبا: «هاهي ذي شحرورتنا الصغيرة أول من يشق علينا الباب دائما».

وأجابت الفتاة بنظرتها الشاخصة وبسمتها الحيية :«لأنني لا أريد أن تفوتني كلمة واحدة من حكاياتك الجميلة يا جدي».

وانتقل المعلم العجوز إلى مخاطبة كل تلاميذه:« عندي لكم الليلة حكاية ستسركم. أتعرفون «بني النجوم» في السماء فوقنا– هؤلاء الذين حدقتم فيهم وتمنيتم أن تكونوا بينهم. إننا نعتقد أنهم أكثر تطورا منا. اسمعوا هذه الحكاية إذن».

الفتاة التي تزوجت النجم

في قديم الزمان، كانت هناك فتاتان تعيشان وحيدتين في مكان مهجور. يومها كانت قبائل الأرض قليلة معدودة وكان «بنو الحيوان» أصدقاءنا.

إحدى الفتاتين كانت تسمى «أديم»، واسم الثانية «ماء».

كانت الفتاتان تأكلان مما يحمله الأصدقاء من «بني الحيوان». الدببة تمونهما بأنواع مختلفة من الجوز والتوت واللفت البري، والنحل يمدهما بأقراص العسل. لم تكونا تأكلان اللحم، لأن ذلك يعني الاعتداء على الحياة. أما مسكنهما فمصنوع من عيدان البتولا، وأما فراشهما فحصير من الأسل.

ذات ليلة صيف استلقت الفتاتان على فراشهما مستيقظتين تتطلعان إلى السماء من كوة كوخهما وتتبادلان الأحاديث.

قالت «أديم»: إني رأيت فتى وسيما في منامي كأنه جاء من السماء.

وقالت الثانية: كذلك رأيت رجلا في منامي، وكان بطلا شجاعا.

قالت «أديم»: ألا تعتقدين أن هذه النجوم المتلألئة في السماء فوقنا هي رجال أحلامنا؟

أجابت «ماء»: إذا كان ذلك صدقا، وربما كان ذلك صدقا، فإنني سأختار ذلك النجم المتوهج زوجا لي.

وقالت أختها: أما أنا فسأختار ذلك النجم الذي يَبصُّ من بعيد.
ثم نامت الفتاتان، فلما أفاقتا وجدتا نفسيهما في السماء.
كان زوج الأخت الكبرى التي اختارت النجم المتوهج من ألمع المحاربين وأكبرهم. أما زوج الصغرى فكان رجلا وسيما لم يلمع اسمه بعد.
كان الرجلان النجمان ودودين طيبين يحبان زوجتيهما اللتين عاشتا معهما بسعادة في منازلهما السماوية.
وذات يوم خرجت الفتاتان لجمع اللفت البري فقال المحارب الكبير لزوجته::« حين تحفرين لا تضربي الأرض بقوة».
كذلك حذّر الزوج الشاب زوجته قائلا: «لا تضربي الأرض بقوة».
لكن «أديم» نسيت النصيحة. كانت على عجل فضربت الأرض بعصاها المرمّحة ضربا قويا لاستخراج اللفت البري فكسرت قاع السماء وسقطت.
وعثرت امرأتان فقيرتان على الفتاة ممددة فوق المرج.
كانتا لطيفتين فشيدتا لها كوخا صغيرا من أغصان الصنوبر، وأحضرتا لها خنشارا لفراشها. وكانت أكبر المرأتين تعتني بها وتلاطفها ما استطاعت، لكن الفتاة لم تتوقف عن النحيب والبكاء. وكانت تستعطف :« دعيني أذهب! إنني لا أستطيع أن أعيش بدون زوجي»!.
وجاء الليل، فظهرت النجوم في السماء كعادتها. لكن ذلك النجم الذي يبص من بعيد كان غائبا لأنه دهن وجهه بالأسود حزنا على زوجته.
أما الزوجة البائسة فانتظرت زوجها طويلا، لكنه لم يظهر في سماء الليل لأنه لا يستطيع الظهور. وذات ليلة نامت ورأت في منامها نجما أحمر صغيرا لم يكن في السماء من قبل فقالت: «هذا النجم الأحمر طفلي»!
ولما استيقظت صباحا وجدت إلى جانبها طفلا جميلا؛ «الطفل النجم» الذي شب بعد ذلك وصار مغامرا كبيرا. وكان في الليل عندما يخترق الغابات الوحشية يهتدي بالأطفال النجوم من أبناء خالته في السماء.

العشية الرابعة والعشرون

«هَن، هَن، هاي! ها هو «وازييا» العجوز، (ريح الشمال)، على طريق الحرب. لكنكم جئتم، فيا لكم من أطفال شجعان! انظروا، ها هو ينفض عباءته الزغبية فتطير حبات الثلج الصغيرة بجنون. إنه يطلق صيحة الحرب فيختبىء الجبناء في مساكنهم الآمنة. أما أنتم فشجعان لا ريب عندي في ذلك. ولهذا سأحكي لكم حكاية المعركة بين «وازييا»

وبين بطل من أعظم أبطالنا، أبواه امرأة فانية ونجم».

ريح الشمال والفتى النجم

في أقدم الأزمان عند بداية الأشياء مضى «الفتى النجم» حول العالم يدافع دفاع الأبطال عن المستضعفين وينتصر لهم من ظالميهم.

كان المحارب الشجاع قويا لا يحني قوسه الخشبي دون أن يكسره، ولهذا تسلّحَ بقوس من عظم، وسكين من عظم، وبلطة حربية من حجر.

ذات يوم، وصل إلى قرية الضفادع، فخرجت من مساكنها للقائه وقدمت له الطعام، لا الماء. كانت تقول: «كل من مضى إلى الماء لم يعد، فهناك يكمن محارب عظيم ابتلع كثيرا منا على قيد الحياة، وها نحن الآن نهلك من العطش».

بعد أن تناول «الفتى النجم» طعامه أحس بالعطش فمشى إلى الماء. وهناك التقمته «تاما هاي (السمكة العملاقة)» لكنه سرعان ما شق خياشيمها بسكينه العظمية ونجا. ثم أنذر السمكة العملاقة قائلا: حذار من هذا التدمير الوحشي لبني الضفادع. إن كيدك قد يرتد عليك ذات يوم»!

ثم ارتحل بعد ذلك بعيدا حتى وصل إلى قرية أخرى يعيش فيها قوم صغار لا يستطيعون أن يحتطبوا لنارهم: «إننا لا نجرؤ على دخول الغابة لأن هناك محاربا متوحشا يحط علينا من فوق ويأكلنا».

وتوجه «الفتى النجم» إلى الغابة فورا. وهناك هاجمته «هينهان (البومة)» لكنه كرّ عليها ببلطته وقال للبومة: « جزاء على وحشيتك فإن الشمس ستعميك، ولن تستطيعي الصيد إلا في الظلام عندما يختبىء »بنو الفئران» في جحورهم ومخابئهم».

كذلك ارتحل الفتى النجم شمالا حتى وصل إلى أقصى بلد شمالي. وفي تلك الأرض البعيدة وجد قوما في بؤس شديد. كانوا يخافون «وازاييا (ريح الشمال)» الذي طرد قطعان الجاموس ولم يبق لحما للطعام. وقال أحدهم إن «وازاييا» لا يشير إلى واحد منا باصبعه إلا مات».

قال لهم «الفتى النجم»: «تعالوا نصطد الجاموس».

وبالرغم من جوعهم الشديد كانوا خائفين مترددين.

ومع ذلك فقد أقنع بعضهم بمرافقته. وهناك في عراء السهل واجهوا «ريح الشمال» الذي تحدى المحارب الشجاع للنزال.

والتحم المتحاربان بضراوة فكسر «الفتى النجمُ» قوسَ «ريحِ الشمال» في الجولة الأولى. ثم إنه سقط على الأرض بعد ذلك كأنه ميت.

بعد قليل، نهض «الفتى النجم» من جديد فتطاحنا جولة ثالثة لم ينتصر فيها أحد منهما. ولهذا اضطر المحاربان إلى الراحة على الثلج قليلا.

وقعد «الفتى النجم » على جلد العجل، وبدأ يمَروح نفسه بجناح نسر. وسرعان ما بدأ الثلج بالذوبان واضطر ريح الشمال إلى الإنسحابَ. لكنه قبل أن ينسحب عقد معاهدة مع «الفتى النجم »التزم فيها بأن لا يزور الأرض إلا نصفا واحدا من السنة وأن يمنح القوم وقتا كافيا للاستعداد وتموين الطعام لأيام الشدة. وبهذا صار في الأرض شتاء وصيف.

العشية الخامسة والعشرون

ما تزال شمس آذار الوهاجة تتراقص فوق البحيرة العميقة الزرقاء. كان ثلج الليلة الماضية قد ذاب عن وجه الأرض، جدتِنا السمراء، عندما وصل الأطفال إلى باب «سموكي داي» المفتوح على مصراعيه.

هناك الليلة حماسة في الجو تُغري الرجل العجوز بأن يروي حكاية الشباب والمغامرة. وهذه هي الحكاية.

العذارى العشر

في قديم الزمان كان هنالك أخوان يحبان فتاة واحدة. وكان يبدو أن الأخ الأصغر هو المفضل . ذات يوم دعا الأخ الأكبر الغيور أخاه إلى رحلة صيد في جزيرة داخل البحيرة الكبيرة تبعد عن قريتهم نهارا كاملا من الإبحار في القارب.

ولم تكد أقدامهما تطأ أرض الجزيرة حتى قال الأخ الأكبر: «اذهب إلى الطرف الآخر من الجزيرة ودعني أطرد الغزلان إليك».

وأطاع الأخ الأصغر أخاه، وانتظر طويلا على الطرف الآخر من الجزيرة دون أن يظهر غزال واحد ودون أن يسمع شيئا من أخيه. وأخيرا مضى عائدا عبر الغابة إلى حيث رسى بهما القارب. ولدهشته كان القارب وأخوه يختفيان عند أفق البحيرة الزرقاء.

وظل الأخ المخذول يجوب الجزيرة أياما عدة، ويقتات من الصيد الموفور. كان مستوحشا تقتله الوحدة حين شاهد على ضفة البحيرة رجلا عجوزا ذا شعر أبيض طويل.

قال العجوز: «يا بني، إنك تبدو بائسا حزينا! قل لي ماذا تتمنى»؟

أجاب الشاب:«لا شيء سوى أن اعبر المياه إلى اليابسة. إنه ليس لدي زورق ولا أملك ما يعينني على صناعة زورق».

قال الشيخ الجليل: «إركب ظهري لآخذك إلى هناك». وفعلاً، حمله العجوز على ظهره وسبح به إلى اليابسة. ولما وصلا أحس الشاب بأن عليه أَن يرد الجميل، وأنه لم يعد

يشتهي العودة إلى أهله ولا إلى أخيه الذي خذله، ولهذا مضى مع العجوز إلى كوخه ليصطاد له.

وفيما كان يصطاد له يوما على عادته تناءى إلى سمعه من عمق الغابة رنين عذب؛ فتيات يضحكن. فمضى في اتجاه الصوت حتى وصل إلى درب عريض سلكه إلى أن أدرك تسعة رجال كانوا يعدون على ذلك الدرب.

وسرعان ما ضموه إليهم قائلين إنهم كانوا يحتاجون إليه ليكتمل عددهم. وأسرع الرجال العشرة إلى أن أدركوا عشر صبابا فاتنات. كان الليل يصعد السماء فمضوا جميعا ليخيموا على ضفة البحيرة الكبيرة.

أخذت الصبايا اللطيفات يتبادلن الأحاديث الودية مع الشباب إلى أن انتصف الليل ومضى كل فريق لينام تحت عريشة من أغصان الشجر نصبت على عجل.

في الصباح الباكر، استيقظ الشباب، ولدهشتهم اختفت الصبايا، ولم يروا إلا لمعة مجداف بعيدًا حيث تلتقي البحيرة بالسماء عند خط الأفق.

لم يكن هنالك قارب، فيئسوا وكادوا يعودون من حيث أتوا لولا أن الشاب الذي انضم اليهم عثر عند حافة الماء على صدفة صغيرة من بلح البحر دعاهم إلى ركوب متنها.

وللوهلة الأولى ارتابوا فيه وتراجعوا، لكن واحدا منهم غامر ووضع قدميه في الصدفة فحملته. وتبعه الرجال واحدا بعد واحد إلى أن صار العشرة داخل الصدفة التي تحولت إلى قارب واسع مريح أبحر بهم جميعا إلى الضفة المقابلة.

وهناك وجدوا الكوخ الأبيض الكبير حيث تعيش العذارى العشر مع جدتهن الساحرة الشريرة العجوز.

ولما رأتهم الساحرة تناولت حفنة من رماد وذرّتها في وجوههم فسقطوا كالموتى واحدا بعد الآخر تحت أقدامها . وكان الأخ الأصغر في آخر الصف. وكان قد استعار أسلحة الشيخ الجليل الذي عاش معه. ومن حسن حظه أن العجائب التي يصنعها الشيخ أقوى من سحر الساحرة. ولهذا فما كاد يواجهها بدرع السحر ليبعد عنه الرماد المتساقط حتى انهارت قوة الساحرة على الأذى ونهض كل شاب إلى عروسه.

العشية السادسة والعشرون

عندما تنصرف القرية إلى صيد الربيع وينتهي موسم الحكايات يتفطر قلب «سموكي داي»، فكل الحكماء والشيوخ الهنود يحبون صحبة الأطفال.

يقول المعلم العجوز: «أرجو أنكم استمعتم إلى حكايات شعبنا ورددتموها مرارا حتى لا تنسوها أبدا».

ويجيب الأطفال بصوت واحد: « نعم يا جدنا، نعم»!

ويتابع المعلم: « لا يكفي أن نتذكر ونعيد هذه الحكايات، بل إن علينا أن نتأمل تعاليمها ونتبعها، لأن ذلك هو ما أبقى حكايات الزمن القديم حية بين الأجيال. إن هناك الكثير مما نتعلمه من حكاية إنسان كان متواضعا إلى درجة أنه تقمص طفلا صغيرا بائسا من أجل أن يعمل عملا صالحا في الخفاء.

السهام السحرية

ذات زمان أراد رجل أن يسافر، فزودته أمه بأكياس اللحم المقدد وبخفين. أما أبوه فقال: «هذه يا بني أربعة سهام سحرية، إرم واحدا منها وقت الحاجة».

وارتحل الشاب وحيدا فاصطاد في الغابة أياما عدة. لكنه جاع ذات يوم ولم يجد صيدا فرمى واحدا من السهام السحرية في الهواء.

لم تغب الشمس حتى ارتمى أمامه دب سمين مصاب بسهم في خاصرته . واقتطع الصياد لسان الدب لطعامه ثم ضحى بالجسد قربانا لوجه «السر الأعظم».

ومن جديد لم يجد طعاما، فرمى مع الصباح سهما سحريا ثانيا في الهواء. ولم تغب الشمس حتى وجد أيلا كبيرا قد أصابه سهم في قلبه. هكذا أكل لسان الأيل وضحى بجسده. وفي المرة الثالثة أصاب ظبي الموز، ثم أصاب بسهمه الرابع جاموسا.*

بعد أن رمى كل سهامه السحرية، خرج الشاب من الغابة ليجد أمامه قرية مستديرة كبيرة ذات بيوت من جلد. ثم لاحظ، بعيدا عن البيوت، على الطرف الأقصى من القرية، خيمة صغيرة فقيرة يعيش فيها زوجان عجوزان. فأخذ ثيابه وخبأها في شجرة خاوية، ثم لمس شعفة رأسه فأحال نفسه إلى طفل صغير بائس. ومضى إلى الخيمة الفقيرة.

حين رأته المرأة العجوز قادما قالت لعجوزها: «دعنا يا ختياري نتخذ هذا الولد لنا. إنه يبدو طيبا متقد العينين، ونحن هنا نعيش وحدنا».

أجابها العجوز مدمدما : «بماذا تمنين نفسك يا ختيارتي. إننا لا نكاد نقيم أوَد أنفسنا وأنت تتحدثين عن تبني طفل وغد هفتان لايعرف أحد أصله».

كان الصبي قد اقترب فأومأت إليه المرأة أن يدخل الخيمة، وقالت له بلطف : «استرح يا بني». وبرغم نظرات زوجها المكفهرة قدمت له طبقا من الذرة المحمصة، وهو كل ما لديها من طعام.

أكل الصبي وارتاح، ثم قال للمرأة العجوز : يا جدتي، أتمنى أن يصنع لي جدي بعض السهام»!

فقالت العجوز لزوجها: «أتسمع يا ختياري. من صالحك أن تصنع سهاما للصبي».

أجاب الرجل العجوز: « ولماذا أصنع سهاما لطفل غريب رقيع»؟
ومع ذلك فقد صنع له سهمين أو ثلاثة حملها الصبي ومضى للصيد.
بعد قليل عاد ببعض الطيور الصغيرة التي تناولتها المرأة بسعادة فنتفت ريشها وهي تشكره وتمدحه.
وأعدت المرأة حساء من لحم الطير فتناوله العجوز بفرح. أما الوبر الناعم فقد حشته في مخدة صغيرة.
قال الرجل :« أحسنت يا حفيد، مرحى، مرحى»، فقد كانوا فقراء.
ولم يمض وقت طويل حتى قال الصبي لجدته التي تبنته: «يا جدتي، حين ترينني بعيدا على طرف الغابة صيحي: « الدب ، الدب»!
وفعلت ذلك. وعندها رمى الصبي واحدا من سهامه السحرية التي انتزعها من جسد صيده الأول واحتفظ بها. وفي الحال رأى عند قدميه ذلك الدب الذي ارتمى أمامه من قبل والسهم في خاصرته.
وتهلل بيت العجوزين الفقيرين وشاع فيه الفرح.
وبينما كانا يسلخان الدب ويقددان لحمه جلس الصبي وحيدا. وكان في القِدر لسان الدب يطبخه لنفسه.
فجأة وقفت فتاة شابة على الباب. فلما رأته غطت وجهها بثوبها بتواضع جمّ وقالت بصوت خفيض: «جئت لأستعير مدقّ جدتك».
أعطاها المدّق وقدّم لها معه قطعة من اللسان الذي طبخه فانصرفت شاكرة.
ولما استُهلك لحم الدب رمى الصبي سهما ثانيا فقتل أيلا، ثم قتل بالسهمين الثالث والرابع «ظبي الموز» وجاموسا. وكما فعل من قبل فإنه كان ينزع سهمه السحري من جسد الصيد.
ثم سمع الصبي أن أهل القرية في ضيق، وأن نسرا أحمر يحلق في سماء القرية فجر كل يوم، وأن ذلك نذير شؤم وسببٌ في شحّ الصيد وخيبة الصيادين.
ولم يستطع بطل من أبطالهم أن يرمي النسر ولهذا عرض زعيمهم أن يزوج ابنته لمن يقتله.
ما أن سمع الصبي بذلك حتى مضى في صباح اليوم التالي باكرا، وكمن للنسر الأحمر. ثم رماه بسهمه السحري فسقط تحت قدميه في الحال.
انتزع الصبي سهمه من جسد النسر ومضى إلى الكوخ دون أن يكلم أحدا.
وتبعه أهل القرية إلى كوخه الفقير ليشكروه، ثم أحضروا إليه ابنة الزعيم الجميلة

ليزوجوه منها. ولدهشته فقد كانت هي الفتاة التي جاءت لتستعير مدق جدته.
عندها مضى إلى الشجرة الخاوية حيث خبأ ثيابه، وعاد بعدها إلى حفل زواجه شابا وسيما ناعم الملبس.

* ظبي الموز moose: أكبر أنواع الغزلان، من حيوانات أميركا الشمالية.

العشية السابعة والعشرون

في هذه الليلة الأخيرة قبل للأطفال أن يكونوا هادئين أكثر من عادتهم، وأن يصغوا باحترام وخشوع لأن هذه الكلمات – كما قال معلمهم العجوز– أثمن ما سأقوله لكم.
لقد سمعتم أن «السر الأعظم» موجود في كل مكان. إنه في البر والبحر، وفي الحر والقرّ، وفي الحجر والشجر، وفي الشمس والسماء؛ وإنه موجود كذلك فينا. ولا شك في أن رحيل الروح سرّ آخر، ولهذا لا نلفظ اسم من يموت عاليا.
إن الأعاجيب تسكننا وتحيط بنا ، لكننا حين نسمع صوت «الروح» ونسالمه فإننا لا بد أن نفك هذه الأسرار ذات يوم.
بهذه الكلمات استخلص الحكيم العجوز دروسه وعبره فيما كانت الحلقة تصغي بصمت وخشوع.

الزوجة الطيف

ذات زمان، كان هناك شاب يحب الخلوة والتوحد ويناى بعيدا عن المنازل أياما طويلة بصحبة الذئاب والدببة وغيرها من الوحوش.
شوهد مرة تحيط به الغزلان يطعمها ويعتني بها. وحين اكتشف الغزلان حضور الغرباء شخروا خوفا واختفوا.
هناك من قال إنه كان يحكي لغة الحيوان. فكل الطيور وكل كائنات الجو الخفية الروحية كانت تجيب نداءه. أما الفراشات فكانت تأتيه طوعا وتحط على جسده.
ذات يوم، فيما كان راقدا على المرج بين الزهور البرية، مغطى بفراشات من كل الألوان كأنها على جسده عباءة بديعة، ظهرت له صبية حسناء.
وجفل الشاب لمرآها، فقد كان يعرف وجهها من قبل، ولطالما شاهدها. إنها ابنة الزعيم، أجمل فتيات القرية. وكانت قد ماتت قبل عشرة أيام.
كانت الفتاة قد أحبت هذا الشاب سرا فلم يخطر ذلك على باله. كان مأخوذا بالمخلوقات

البرية مديرا ظهره للإنسان وعالم الإنسان.

ولكن، ها هي تقف أمامه صامتة غضيضة الطرف، وها هو ينظر إلى وجهها الريق وقدها البديع ، وتستيقظ في قلبه مشاعر الحب التي لم يعرفها من قبل.

قال الشاب مناجيا نفسه بحزن دون أن يجرؤ على مخاطبة الفتاة: «لكنها الآن روح»!

كانت تقرأ خواطره فابتسمت له ببشاشة وهي تتطلع إلى عباءته الغريبة البديعة.

مع الغروب طارت الفراشات واختفى طيف الفتاة.

بعد ظهور الطيف طال غياب الشاب عن أهله، ولم يعلم أحد أن روح الفتاة قد جاءه إلى أعماق الغابة.

كان الشاب قد بنى لها كوخا من عيدان الصنوبر، فكانت تجيء إليه تطبخ له لحم الصيد وترتق له جواربه وتقعد بجواره حول النار.

لكن الشاب لم يكن سعيدا بهذه الحال، فرجاها أن تمضي معه إلى القرية، ذلك لأن أمه وأهله لا يطيقون غيابه الدائم. وقال لها مستعطفا: «آه يا زوجتي الروح، ألا ترجعين معي إلى أهلي فنبني لنا بيتا في جوارهم»؟

قالت بحصافة: هذا وارد، إذا راعيت شروطي بحذافيرها.

أولا، يجب أن ننصب خيمتنا على منأى من خيام الناس غير بعيد.

ثانيا، عليك أن تصبر على غيابي وغرابة سلوكي لأنني لا أستقبل أحدا ولا أواجه أحدا إلا في الليل.

ثالثا، يجب أن لا ترفع صوتك في خيمتنا، وأن لا تتحدث أبدا إلى طفل حديثا فظا بحضوري.

قال الزوج: سأراعي ذلك كله مخلصا.

وعاد الشاب إلى قريته، بعد غياب طويل، وبصحبته زوجة. ونصبا خيمتهما على منأى من القرية غير بعيد.

وصار الناس يشاهدون عن بعد صورة فتاة شابة منعمة في حركة حول الخيمة البيضاء النائية. ولكن ما أن يقترب أحد من أهله لتهنئته والترحيب به حتى كانت تحمل فأسها وتمضي إلى الغابة كأنها تريد أن تحتطب، أو تحمل دلوها وتمضي إلى الماء.

أما في الليل فكانوا يزورون الزوجين الشابين ويجدونها في البيت. لم تتحدث إلى أحد منهم لكنها كانت تبتسم لهم ببشاشة محببة. كان زوجها يقول أن زوجته من كائنات أخرى تتصرف بهذه الطريقة الغريبة. ومع الزمن اعتاد الناس، بل لم يعودوا يتساءلون لماذا لا يجدونها في خيمتها نهارا.

وعاش الزوجان سعيدين، وأنجبا صبيا ثم بنتا.
وذات مساء عاد الوالد من صيده جائعا مرهقا. كان الطفلان يبكيان عاليا. وللمرة الأولى نسي وعده وتحدث بغضب إلى الطفل.
وحالها انطفأت النار، وعم الظلام.
ولما أشعل النار من جديد كان وحيدا.
لم يُجد البحث عن الزوجة والطفلين.
لم تنفع الدموع.
لقد اختفوا إلى الأبد.

ترجمة وتقديم : منير العكش
واشنطن

ملاحظات :

* هذه الحكايات الشعبية، وعددها سبع وعشرون حكاية، جُمعت في أول القرن من قبل طبيب وأكاديمي هندي يدعى «أوهي بيسا» (رسميا: شارلس ايستمن) بالتعاون مع زوجته إيلين. ونشرت عام ١٩٠٩ في كتاب بعنوان Wigwam Evening عن دار Little, Brown and Company، ثم أعيد نشرها في طبعات مختلفة. وقد اعتمدت في نقلها على الطبعة الأولى.
* حافظت على خطاب العقلاء للحيوانات أينما ورد ذلك، وكذلك فعلت عند تعامل الحكاية مع أعضاء الجسد معاملة الكائن العاقل كما هو الحال في علاقة البطل بوجهه في قصة العشية التاسعة. لقد أردت الأمانة مع هذا النص لأن العنصر الأدبي ليس إلا وجها واحدا من وجوه هذه الجوهرة الأنثروبولوجية.
* اضطررت أحيانا قليلة جدا إلى إضافة كلمات لا يُفهم السياق العربي بدونها، وقد وضعتها بين معقوفين.
* حافظت على الكلمات الهندية الواردة في النص الأصلي.
* وضعت في آخر كل حكاية تعريفا سريعا بالحيوانات التي ليس لها تصور في الذاكرة العربية، ففي أميركا حيوانات ووحوش نادرة تتميز بها وحدها.